ليلة عاشوراء

بقلم

صلاح والى

●

دار الهلال

الغلاف بريشة الفنانة :
سـميحة حسـنين





- ١ -
الليلة عاشوراء يا إبراهيم

كل عـام وليلة عـاشـوراء ليلتك ، كل عـام وأنت فى انتظار النيـابة ، والحجز موت لا يحسد عليه ظالم .

وأنت منذ الصباح الذى رأى وجهك صغيراً تسأل الى أين ؟ وأنت وحيد فى هذه الدنيا .

والدنيا بنت كلب بناسـها ، وبنت ناس بناسـها ، وأنا لا أعرف إن كنت ابن كلب أو ابن ناس وأصول يا ناس .

كنت أعرفها وأحذرها ، فكم خدعتنى بملاعق العسل الممدودة ،إذا بها فى فمى علقم ، كلما حَلَتْ أَوْحَلَتْ .

أعرفها وأعرف طبعها اللئيم هى والنساء صنوان ، وأنت ضحية الدنيا والنساء ، وعندما تقول ذلك للناس يقولون لك بلا أى ضمير (فلفسة) فلسفة كلام فى كلام ، ابحث لك عن عمل !!

مـاذا أفعل يا ناس سبع صنايع والبخت لا يلين ، أحاوره وأداوزه وهو يناور ويحاور ويداور ويهرب .

خمس سنوات – أربع نجاحات ورسوب واحد – ثلاثة أبحاث ، وجيد جدا واحدة ، وجيد واحدة ، وراسب واحدة ، ومقبولان ، وليسـانس آداب قسم

فلسفة ، وسائق ميكروباص ، وسفرة واحـدة ، وسـائق بشركة الكهرباء .. طز يا دنيا طز .. آخر كل شىء النيابة .

خمس سنوات والدكتور قاسم يقول :

– عقلك ألماظ ، لكن جفٌ على العند ، العند !!؟

تعـال يا دكتـور .. لقـد خضـعت وجالس أنا أمـام الحـجز فى انتظار النيابة !!

ماذا حدث يا ابراهيم ؟!!

– الليلة عاشوراء يا إبراهيم ... دائما كل عاشوراء .

– ليلة مباركة يا شيخ .

– أهلك .. أهلك .. يا إبراهيم .

– أهلك لا تهلك يا إبراهيم .

هل ستطلقها ؟!.. وأولادك .. من أجل الورد ...

– الليلة مفترجة يا إبراهيم .

يا إبراهيم ... يا إبراهيم ... يا إبراهيم ...

★★★

– كيف تكون الليلة مفترجة وفيها قُتل أهل البيت ؟!

كيف تكون مـباركة ... أهى مباركة لأن أرواحـهم صـعـدت الى بارئها مخترقة وجه السماء واصلة الى سماواته العدل العلا !!

هذه الليلة لا مفترجة ولا يحزنون .

ربما مفترجة لأهل زوجتى .. لأنى سأعود إليهم وأزيح زوجتى وأولادى عنهم ، وسأعود كما عدت فى المرات السابقة .

يخدعنى الصغير والكبير بالحجج فأترك شروطى فى الشارع وأدخل خاليا من كل سلاح ، بعد أن يقولوا لك هَمٌ فى انتظارك يا إبراهيم ، لا تتكلم اسمع كل ما يقال ولا ترد ... كلام غضب من أهلها ... سيريحهم أن يقولوه ... وسيسعدهم ويعيد اليهم كرامتهم أنك لن ترد . أدخل فاذا الخديعة والمكر والشروط تلفُّ حولك .

وأهب واقفـا . فيقولون زوجتك وأولادك فى انتظـارك هيـا هيـا الى البيت ، فيخبو فى داخلى لهيب الاحتجاج وأدلق عليه تراب الفرنْ ولكن يظل بصيص النار تحت التراب وخوف من شىء ما ، وتأجج الشهوة فىَّ .

وليلة الأمس ذهبت ، قلت لنفسك فى الطريق ، إذا كانت المرات السابقة من أجل وجع الجنب ، ودخولها غرفة العمليات ، والعيب ، وفيروز وعبد الحليم وكله فى ليلة عاشوراء ، فهذه المرة بلا مناسبة يا إبراهيم ... أنت الشهم ، وهى الطيبة قلت لكم كل مرة لها مناسبة واليوم بلا مناسبة .

هذه مشيئتكم .. وهذا رأيكم .. وقد نزلت من على نخلة رأيى الى مرحاض رأيكم .

رأيكم الذى يقول إذا قال لك ثلاثة من الناس أن رأسك ليست منك فتحسس رأسك ... حتى لو كانوا مجانين ؟!

تحسست رأسى ومؤخراتكم يا أولاد القحاب ... وكلها تنتهى الى مرحاض رأيكم .

★★★

ذهبت يا إبراهيم والعيون – كما ترى – تخفى ما تخفى ... أمالوا لك جانبهم وتجنبوا مناقشتك وحملوها لك بفيروز وعبد الحليم ، وعادت ، ومَدَدْتَ

اليد للغير ، فعادت بالجنيهات ليلة أمس ، وفى الصباح بعد ساعتين أحضرت اللحم والأكارع والطمـاطم والبطاطس والبسلة والجزر والبقدونس فاليوم عاشوراء ... رغم نومك ليلة أمس وهى أولى لياليها فى البيت فى الصالة بعد أن وضعتْ على قفل الحجرة وترباسها الداخلى شروطها بالفستان الحرير المنقوش والثوب الملس الأسود والطرحة الطبيعى والمناديل سادة (وبأوية) والشبشب الزحافى .

وبت الليلة فى الصـالة وكنت تمنى نفسك بالمبيت فى دفء السـرير المهجور تنغرس يدك فى اللحم وتغوص فى اللحم وتشم رائحة العرق واللهاث ، واذا نفضتْ يدكَ وأعطتك الظهر وتظاهرتْ بالنوم ، فاقتربتَ منها ، حتى اذا التفتتْ عثرتْ يدها فيه ، أو احتضنتَ الظهر ، فابحث لك عن طريق الى العين، خاصة وأن لها عينًا كفم الجمـل تصل اليها كل الطرق من كل الجهات ، سبحان ربى خالق الأشياء .

ربما لن يحدث هذا فسبحان ربى مدبر الأمور .

أنا لم أناقش الشروط وتركتها معلقة على مغاليق باب الحجرة ونمت فى الصالة فلا أريد أن ألمس المشاكل ولا أريد لها أن تلمسنى .

قلت لنفسى وأنا أنام على الكنبة وركبتى عند ذقنى ، أنت لم تقصر يا إبراهيم ففيما سبق أحضرت الملابس الداخلية السادة والملونة من الموسكى والعتبة ومن تحت الكوبرى الحديد ، وأخذت فى ليالى الفرج جوزة الطيب المدقوقة مع الحلاوة الطحينية ، وقَفَلْت آخر دور بدرى وأخذت من فتحى عبد الملك الربع البرندى بأحرفه الأربعة والثُمن الكينا البسليرى ووضعت تحت اللسان بعد الشرب نصف القرص القوى ذى اللون الطحينى الذى أهداه لك صديقك الطبيب بالجيش وتجهزت لفتح عكا ، وعدت اليها .. وعرفتْكَ فأطفأتْ النور وخلعت ملابسها دفعة واحدة وقبل أن تختار مما اشتريت قميصا لك

تلقفتها فانزلقت تحت اللحاف الذى لا يدرى متى خلعتَ أنتَ ملابسكَ ومدَّتْ يدها .. فأَشْعَلَتْ واشْتَعَلَتْ .. وكان نور السهراية يخلقكما من نور وتعجبتَ وسط متاهة اللذة والنعيم من طبعها اللئيم !!

وقلت فى نفسك أين هذا الكلام الجميل والدلال الموجع ؟! أين يذهب كل هذا فى الصباح كأنها امرأة أخرى ؟ أيهبط عليها من نور السهراية ؟ أم من الظلام يجىء ؟... أحكمَتْ عليكِ الغطاء وقبَّلتْكَ وانفلتت دقائق وعادت تدسُّ فى فمك اللحم المحمر والكبدة المشوحة .. وفى الصباح أحضرتْ لك الافطار على السرير وقالتْ ... نم ... أجِّلْ الشغل اليوم أنت تعبان يا هيمه ..

ونمتَ فانزلقتْ بجانبك فاكتشفت أن النهار كالليل على السرير خاصة إذا جنبنا الله طرق الباب وعودة الأولاد من عند أمها .

★★★

قمت فى الصباح مبكرًا فاكتشفت أن النوم على الكنبة غير مريح وبارد حتىٰ ولو كنت بالصيف وإذا بباب الحجرة ينفتح والنابالم يغطى العالم ، ورثاؤها للحظ العاثر من ذلك الزوج الذى ينام حتى طلوع الشمس ولا يسعى للرزق ، بينما الحمير والبهائم سرحت .

قلت أعرف مفتاح هذا الهياج .

أخذتها تحت ابطى وقَبَّلتُ رأسها وقلت لها أسرار الليل والصباح فضحكت وسط دموعها المصطنعة وقالت بدلال شروطى أولا ثم كشفت عن أرداف لم أرها من قبل فى وضح النهار .

قالت : شايف .. امسك الأستك .. كله مقطوع ..

قلت : لسنا فى حاجة اليه .

قالت : طلباتى يا هيمة ألست حبيبتك ؟ .

عدت اليها فى الظهيرة بالملابس التى طلبتها وكنت أغنى وأنا أركب الميكروباص قلت ماذا بقى .. نسفت الشروط .. والليلة ليلتى . أعطيتها الملابس فقالت : ذيل الكلب لا ينعدل حتى لو ربطنا به حجر ، والفلاح فلاح لو أكل تفاح أربعين يوما لتجشأ ثوما .

قلت : يا فتاح يا عليم .

بكت وقالت : تضع يدك على أفخاذ بنات الجامعة وأنت تسوق الميكروباص .

قلت لها : عيب .. الله بصير بالعباد .

ونظرتُ فى وجهها كانت جماعات مهاجرة تسير منذ شهور ، تضرب الصدر والوجه حتى الادماء ، يسيل الدم مختلطا بالتراب واللعاب ، الشعر كومة من الليف ، الوجه محترق بالذنب ، الدموع صبايا يسقطن بالمكر فى غياهب الجب ، الثوب ما عاد فيه من كثرة القطع ما يستر البدن ، يفجرون أنهار الدم ، يدوسون على التراب الجمر ، يسيرون فى الدروب والشعاب أياما وليالى ، كربلاء والنجف مقصدهم قطع من التراب الأحمر الذى تحجر بدم الشهداء تميمتهم ، المقام الكبير على رخامه الأملس يبكون ويطلبون السماح والمعذرة ، تتجلى أمامى صورة الشهداء أهل البيت بيضاء تعلو الجمع ، تبتسم ، نور على نور ، حولهم بركة من الدماء نور أحمر وأكفهم تشير وتلوح بالعفو بحجم رقعة السماء .

قلت لها : سامحك الله .

قالت : أعرف أن أى امرأة تستطيع أن تسحبك الى نهاية العالم بمؤخرتها .

- إشرب الشاى يا إبراهيم .. مازلت سرحانا .

- لا يا شاويش عبد الباسط .

قلت فى نفسى : إشرب الشاى يا إبراهيم .. كل رحيل يعقبه فراغ حتى ولو رحيل كلب .

★★★

عندما قلت للبخت المائل اعتدل واستقم فلم يعد فى العمر بقية أدار لى ظهره فقلت له ماذا أخذت من وجهك حتى تعطينى مؤخرتك .

ثم يأتى البخت المائل ليقف لى بالمرصاد فى تلك الليلة رغم اللحم والأكارع والبطة .

من يومها يا ناس ، وأنا لا تركب جوارى سيدة أو آنسة ، لكن هى عادة الركوب ، يركبون فى المكان الأقل ازدحاما ، بجوار السائق مقعدان لا يمكن أن يتبسع لأكثر من ذلك ، أما باقى العربة فيمكن للكرسى الذى باتساع ثلاثة أن يتسع لسبعة شيىء عادى .

وعللت لها فى الزمن القديم سبب براءتى من ملامسة يدى لأفخاذ النساء قلت لها : عصا الفتيس أرضية وليست فى عجلة القيادة ، فكان لابد أن تحتك يدى فى أوراك وأفخاذ النساء وربما مؤخراتهن حتى لو كانوا رجالا ولأن عصا الفتيس أرضية فهذا شغل سفلى لا ذنب لى فيه .

ثم هل أنا عملت سائقا بمزاجى يا ناس !!

بعد خروجى من الجيش فردت حجرى للقوى العاملة ألقط ما تسقطه لى ، لكنها كانت كالنخلة التى فات أوان تلقيحها ، وزانها السلُّ لحماية فراغها .

قال أخى الأصغر : أصبح لدينا شاب جامعى عاطل .. افرحى يا أمى قلت يا ناس أجرى فى سوق العمل ليل نهار ولا ألحق بشىء ، يدى على كتفك يا أخى إن كنت تعرف أى عمل .

قال : يدك على كتفك أنت ، يدك فى جيبك ، يكفى أن تكون يدك ويد إخوتك وأمك على كتفى طوال هذه السنين ... هل تريد أن أزوجك أربى لك أولادك .. حرمت نفسى من التعليم لأعمل وأصرف عليكم ، الناس تسافر وتعود لتكون شيئا مهما .

قلت له بحسرة المذنب : كيف ؟!

قال : تحايل على القانون .

قلت له : تحايلت عليه فأبى .

قال : لو أنك رجلا لخرقت القانون .

قلت : قال لنا الدكتور صلاح مخيمر الرجل الكامل من يفض بكارة أى بكر بضربة واحدة والقانون ليس أنثى بكر لأثبت رجولتى فيه .

قال : أترك الفلسفة الله يعمر بيتك ... قدم أوراقك للتربية والتعليم .

قلت له : لا أصلح مدرسا .

قال : قدم أوراقك وزيرا للتربية والتعليم .

قلت : حاضر .

قال : مدّى له المؤونة شهرا يا أمى ثم اتركيه للشارع .

قدمت أوراقى وكانت أبواب السماء مفتوحة فنفذت منها وعملت مدرسا آه ... .

أربعون نفسًا وثمانون قدمًا وثمانون ذراعًا .. كلها تتحرك بلا ضابط المطلوب السيطرة عليها ، وثمانون عينًا تسأل صامتة وتقول .

وليس المهم ما تقوله فكله فى الكتب .. المهم كيف تجعله سهلا براقا ومهما ويدخل فى هذه الرؤوس .

عندما قابلت (كَانْتْ) فى الحصة الثالثة كنت قد تركت (هيجل) فى الحصة الأولى وفى الفسحة كان التطور يسير بين هيجل وماركس بشكل منطقى ، لكن ابن سينا عندما وصل الى العقل العاشر دافعا عناصر التكوين الأربعة لتشكل الهيولى لتكون الحياة لم يذكر فيض النور ..

وقالت أستاذتى انها شىء معنوى .

وعندما سألنى سائل بسؤال واقع علىّ بلا انتظار وعنصر النور فى الأنبياء ، قلت كالببغاء انه شىء معنوى .

قال آخر : أرى أنك تلفق الأمور ، كيف تدمج ما هو غيبى وسط ما هو عقلى ؟

قلت له : نجزئها لندرسها فنفهمها .

قال ثالث : ندرس أجزاء وهذا خطأ .. ندرس مثلا فى القسم العلمى الدورة الدموية بعيدة عن الجهاز الهضمى وهكذا فكأنما مثلا الدورة الدموية فى روسيا والجهاز الهضمى فى أمريكا والجهاز التنفسى فى مصر والجهاز التناسلى فى السويد أو فرنسا رغم أن كل هذه الأجزاء فى جسم واحد وتعمل معا مشتركة .

أخذت النقاشات كل العام وقال المفتش ضعيفا .. فنجح التلاميذ بامتياز فى آخر العام واستقلت من المدرسة .

وانفتحت المشاكل كقناة صرف المسجد طافحة عليك كل أشكال البلوى وعدنا للتكرار .

وعندما قلت لأخى : هم إخوتك وأمك أيضا .

شخر وقال : أخذت دورى فخذ دورك .

قلت له : أنت تعرف أن سوق العمل قد انفض ، والدنيا يحكمها الغشاش وبائع الضمير واللص والمرتشى والكاذب .

قال : أنت تصنع من الحبة قبة ومُهوِّل .

قلت فى نفسى ليس أمامك إلا العمل فى أى شىء يا إبراهيم وهذا ناتج أى شىء أن تبيت بجوار الحجز كرما منهم حتى يستكمل معك الوكيل فى الصباح التحقيق أصبحت زبونا للنيابة وضاعت بكارتك وطهرك وأصبحت النيابة أقرب اليك من القهوة . والعجيب أن تقول أختى الكبرى : والنبى دماغه ناشفة ، وصوته من دماغه عنيد حتى مع نفسه .

وقالت التى تليها : كلامه أحجبة تمائم تعلق ، لا نرى فانوس خبرة يرشدنا فى ليل الرأى إلا رأيه ولكن لست أدرى لماذا لا ينزل من الزور ‹

وقالت أمى : عيب يا أولاد ... سيصلح الله الحال .

آه يا أمى أصلح الله الحال فى النيابة وأنت فى القبر وأنا فى الشارع أو فى الحبس أو فى حبس امرأتى فأنا رهين المحبسين .

***

- ٢ -

سيهجع الناس بفعل اللحم والمرق الذى يسرى فى العروق وفى الركب ويسيل من بين أفخاذهم شهوة وحريق فيكبس عليهم النوم فى أى وضع هم عليه ، ولا يتركهم إلا عندما تلسع الشمس قفاهم فيفزُّون ، فينفضُّ عنهم تاركا ثقله فى عيونهم وفى عظامهم تعبا وهشاشة .

دخلتُ الى الدار ، الأولاد يلعبون وزوجتى تلبس القميص الساتان اللبنى ، وقد أبرزت مفاتنها ، وما هذا الساتان إلا تزوير فى الجسد إذ يعطيك نعومة لا تقاوم لجسد يقاوم بسهولة .. الليلة عاشوراء يا ناس .

قلت : مساء الخير .

قالت : مساء النور عليك .. كل عام وأنت بخير يا إبراهيم .. تأخرت علينا .. دخلتْ الى الحجرة والفرحة طافحة من عيونها قلتُ فى نفسى هذا يومك يا إبراهيم .. انها ليلة حتى الفجر ، آه لو كنت أعرف لمددت اليد وأحضرت الكيف وجهزت نفسى وصرت جاهزا يا ناس ، لكن شغل الغفلة والشقاء يأتى جميلا .

وضعتْ الطبلية وكانت قد وعدتنى وأنا أعطيها اللحم والأكارع أن تذبح بطة ، كان وجه الأرز على الفتة مدبيا كصدر بكر ، ووضعت سلطانية الشوربة عرق اللحم وتقطير البروتين وبجوارها الليمونة المشقوقة ، فجرى فى ظهرى

عرق حتى عصعص الظهر ، رصت الملاعق ، كقرص الشمس صينية الفتة والملاعق أشعة الشمس كأيدٍ تعطى للإله أتون مفتاح الحياة وتستلم الرضا والقبول .

ثم زجَّت أسفل الطبلية بجوارى بصينية اللحم مغطاة برغيف ساخن ، ولامست ساقى عند وضع الصينية ففار الدم أنهارا ورؤى انداحت الرغبة تفرش أرض الدار كشفت الرغيف كانت المؤخرة تفرش أرض الصينية تحتها مخدة الأرز ، وقد ارتفعت الساقان الى أعلى ملتفتين كأنى بينهما ، وكأنها تقصد فلم تخرج ساقى البطة من فتحتها كما تعودنا كان حشو الأرز مصفرا من السمن ودهن البطة يلمع وأنا ألمح ، فتحتُ الساقين حتى آخرهما فشكت من وجع الظهر وقالت لا تتعجل حاسب .. وأرخت جفنها وضحكتْ فضحكتْ كلاب قريتنا وابتسم الزمن الغضوب .

أعطيت فيروز وعبد الحليم فأكلا وشبعا وغمزتها باللحم فغمزتنى باللحم .. قامت وغسلت يدىّ فيروز وعبد الحليم وأدخلتهما الى الحجرة ، فناما ، ثم جلست أمامى وهى ترفع يديها الى أعلى فانكشف الثوب فبانا فى جلوسها ردفان وفخذان من المرمر ونظرتْ الى عينى وضبطتنى فضحكتْ وغمزتنى باللحم ، فقلت : والله هذا يوم قد خلا عزاله .

قالت : أبى يريدك أرسل إليك ثلاث مرات لا تكسر بخاطره إذهب إليه .. وأنا تكفينى ساعة واحدة نوم .

كان فى داخلى شلال من الخوف لكن قلت فى نفسى لا تكسر بخاطرها ، إحساس غريب كأنك تدخل منطقة من الرمال المتحركة فى ظلام الليل .. وقلت فى نفسى : ماذا يريد هذا البغل ؟

★★★

النار جمر بيننا ، أحْوَلْ العين يجهز الجوزة والمعسل ، الكيف حبات عدس سوداء فى طبق صينى .

أحول العين شمَّر الأكمام وظهر الكالسون من تحت جلبابه وقابلنى بمساء الفل فقلتُ : مساء النور .. فقام أبوها ورحب وسلم .. قلت فى نفسى : سلمنا الله ..

كنت تحس يا إبراهيم ولكن ساعة القدر يعمى البصر .

دارت الجوزة فاستدارت الأيام تعرض أفاعيل الرجل وأوجهه المختلفة، فخفت منه فدس فى يدى ثلاث قطع من الكيف فى ورق الشفاف الأصفر ، وقال فى أذنى : الليلة مفترجة والكيف كثير يا راجل .

لعب الفأر فى عبى ولكن الصداع كان قد ملك علىّ الأمر ، ذهب أحول العين لشراء المعسل ، فدخلت دورة المياه ووضعت قطع الكيف فى الشباك وخرجت .

جلست أرص وأشرب الكيف ، ولم يحضر أعور العين وقارب المعسل على النفاد ، وقام أبوها الى دورة المياه وأنا أدخن الكيف .

فى ضباب الكيف الأزرق دخل ضابط المباحث والمخبرون ، فقمت واقفًا ودست بقدمى فوق طبق الكيف فانكسر وتناثرت حبات العدس فدست عليها .

زعق أبوها من داخل البيت : حرام يا حضرة الضابط .. كل يوم يأتى إلىّ ولا أستطيع منعه وأنا رجل كبير السن ليس لى فى الكيف . والحمد لله دخلت لتجده وحده .

فى عربة الشرطة قال المخبر : أين الكيف ؟! والله سنخرب بيتك .

قلت له : الله يعمر بيتك يا ريجان .. لا كيف ولا غيره .

قال لى وهو يمسك ذقنه : حاضر يا حلو .

قلت له : أن يتآمر على ريجان وبيجن والداخلية والحكومة فهذا شىء معقول فى زمن أصيب بالايدز ، لكن أن يتآمر علىّ الشعب فهذا ما لا أصدقه خاصة إذا كان الشعب شعب والحكومة (عكومة) والداخلية وجع والدنيا عذاب وامرأة كامرأتى أقوى من الدهر وأوجع من الأيام .

★★★

قال وكيل النيابة : أريد أن أعرف حكايتك بالتفصيل يا إبراهيم .. فأنت زبون دائم عندنا .

وقتها كنت قد جئت من القسم الى النيابة ، قبل ما أنا فيه الآن بثلاث ساعات .

قال : اصلح أحوالك مع زوجك وحماك .

قلت : حماك الله يا سعادة الوكيل ... أنا ضحية ... كأنما اخترت من دون الخلق كى أكون اسماعيل وعندما أظلم أكون إبراهيم ومع هذا لا النار تكون بردا وسلاما ، ولا الماء ينبع من تحت القدم .. ولا زوجتى مطيعة كهاجر . وأنا مقلوب كل الأشياء وضدها فى نفس الوقت .. لكأنما يتحالفون مع كل الأعوام لتكون كبيسة ، ويمسحون القمر من كل ليالى أيامى ، ويضللون النجم القطبى فلا أرى دليلا وأصبر وأقول الدنيا حمالة أوجه ، فلا أجد إلا أنا حمال لكل ألم . أبيت عندكم يا سعادة البيك وهذه ليلة عاشوراء خير من أن تنتهى الى القتل ، والله يا بيك تعشينا فى أمان الله وأنامت الأولاد ولبست القميص اللبنى .. اللبنى يا بيك !! ثم كان خازوق أبيها ، الذى رتَّب وأعدَّ وشمَّع وغرَّى وأراد أن يجلسنى عليه ، أنا مستعد أجلس على الخازوق بشرط أن يموت كلبير ، أجلس فى مقابل شىء يغسل وجع القلب .

قال وكيل النيابة : يا إبراهيم .. تابعت كل ملفاتك واحترت فى أمرك .. أعرف أنك كنت سائق ميكروباص وقد ضاع الميكروباص فى حادث ثم تعمل الآن سائق ميكروباص آخر ... كيف يأتمنك الناس على أموالهم ؟!

قلت : يا سعادة وكيل النائب العام .. كل شيء له حكاية فالحادثة الأولى والثانية لا ذنب لى فيهما وخرجت براءة .. فلماذا لا يأتمننى الناس ..

قال الوكيل : كيف ؟.. قص حكايتك علىّ ... الشاى فى الترموس ... والسجائر كثيرة وسأسهر معك حتى نهاية عملى .. وأنا أعرف أنك خريج جامعة قسم فلسفة أو اجتماع .

قلت له : قسم فلسفة آداب ، كنت أود أن أدخل قسم اجتماع لكنى كرهت القسم من أجل رئيسه الذى يعلق انتماءه شارة حسن ليزداد ثمنه فى البيع .

قال : المهم إحكِ لى حكاية الميكروباص الذى عاد مسحوباً بجمل .

قلت له : لا يا سعادة البيك الأول حملوه على عربة نقل والثانى تم سحبه بجرار .

قال : نعم !!؟

قلت : نعم .. هذه هى الحقيقة .

قال : قل لى لماذا إذن تركت العربة الأولى ؟

قلت : يا سعادة البيك أترك ماذا ، لم تكن هناك عربة لأتركها .. خرجت من المستشفى وأخذ الرجل عربته .. كلها سليمة وصحيحة ، الصاج سليم ماعدا من الأمام والعجل سليم والكراسى الخلفية كما هى لكن العربة لا تسير وعجلة القيادة مكسورة .

قال : احكِ لى بالتفصيل .

قلت له : من يوم أن وضع الرجل يده على كتفى فى المسجد وقال لى لا تحمل همًا ، كنت يومها قد خرجت من البيت بعد مشاجرة مع أخى ورفت من الحكومة .. لن أطيل عليك .. كنت قد تعلمت القيادة فى الجيش واستخرجت رخصة ، لم أعمل بها عندما سافرت .

عملت مع الرجل فى نقل الناس وطلبة وطالبات الجامعة ما بين البلد والمدينة وكان الحق بينى وبين الرجل أضع بين يديه كل الايراد ويضع فى جيبى حقى وزيادة أغرانى الحرام فبصقت فى وجهه ، وقلت الحلال بين وقال الشيطان والحرام لين . ولكنى عزمت على السير فى الطريق الصحيح ، وتعبت فعلى طريق الحلال حواجز واشارات مرور وطريق ضيق لكن صدقنى يا بيك مريح .

انتهت امتحانات الجامعة ومن قبلها المدارس ومن بعدهما الشهادات ولا يذهب الى المدينة إلا الموظف قلت دور واحد للموظفين .. وكان اليوم بعده بيومين مولد الحسين رضى الله تعالى عنه وأرضاه سيد شباب أهل الجنة وعترة رسول الله .

جهزت العربة وقلت مصر مدد يا حسين مدد يا أم هاشم .

ركب الناس وتمت العربة إلا الكرسى الأمامى وجاء رجل لا أعرفه وركب .. قلت حمداً لله بقى مكان .. لو جاءت امرأة فلن تركب فيه ولو جاء رجل لركب أو أسير بالعربة كما هى .. نريد أن ناكل عيش يا سعادة البيك .. وأنا تلبسنى الحمى وعفاريت الأرض إذا لمستنى امرأة .

بقى الكرسى خاليا .. قلت توكلنا على الله وأقفلت باب العربة الخلفى واذا به أمامى .

قال : صباح الخير يا أبو خليل .

قلت : صباح الخير يا حتْ ...

مـاذا أقـول يا ناس وجـه كـريه وبـخل وشح وأنـا لا أحـبـه ، وأنـا الذى فعلتها فى نفسى قلت لو كان رجلا لسرت بالعربة ولو كانت امرأة فلن آخذها معى حتى ولو سرت بالعربة ناقصة .. جاءك الرجل فسر ، ماذا لو كانت امرأة طرية والله كان الطريق سيجرى من تحت العربة مفروشا بالورد وكنا سنصل مصر فى ثوان ، كنت والله وصلتهم حتى المقام .. استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم .

قال لى بأدب جم : إن شاء الله مصر .

لم أرد عليه ، وقال الركاب : إن شاء الله .

ركب بجـوارى وأزاح الراكب الآخـر جـانب البـاب ، فـجلست بجـوار العربة وأشعلت سيجارة فقال أحد الركاب : يا ريس العدد كامل .

انبرى له سيد الحتْ : إن الله مع الصابرين .

قلت : والله هذا يوم طلعت شمسه لتتفرج علينا .. استر يا رب .

كنت أريد أى حـجة حتى لا أسـافر كشـفت عن الزيت تمام - البنزين تمام - الماء تمام - الفرامل تمام - الأنوار تمام كله تمام فى تمام .

كل شىء بالارادة .. كل شىء تمام .

ركبت العربة وقـرأت الفـاتحـة والمعـوذتين وبسـملت وحـوقلت وضـربت المفتاح فى العربة فاذا بمساحات الزجاج تشير لى لا لا .

أوقفت مساحات الزجاج وسرت بالعربة على بركة الله ..

درت تحت كـوبرى بنهـا وأخـذت الطريق السـريع ووضـعت شـريطا لم أنظر اليه فى المسجل فانطلقت الموسيقى ، وزاد سرورى أنها أغنية أحبها .. وعندما أطلقت المطربة جملتها الجميلة فى عتاب الى حبيبها كثير الغيرة .. أن

الناس كلهم يطلبونها ولكنها اختارته الوحيد .. وانه هو الوحيد فى حياتها فلماذا كل هذه الغيرة .. كررت ورنمت ونمقت فشرخت القلب وأخرجت الذكريات .

كانت جميلة على زجاج السيارة عارية كما ولدتها السماء تركب على مهر قلبى آه من هذه الجميلة ، زميلة المدرج والقسم والدراسة ، تأخرت عاما فسبقت فى مضمار الحياة وتوجت سبقها بالدلال ودخلتُ المدرج أبحث عنها بعد رفتى من شركة الكهرباء فوجدت أن المياه التى جرت فى النهر قد أبدلت حتى وجوه الناس ، هذه الجميلة يا بيك التى بحث عنها أبوها فى رحم أمها سبعة عشر عاما الى أن صادفها يوما بجوار القراقيش الثلاث الصغيرة التى تهرب فى البلل وتشتد كالعظم فى الوهج وجد أبوها فلقة نواتها هناك فأكملها بالفلقة الثانية فجاءت جميلة من عنف الفرحة ورعشة الدفع ، كانت ليلة جميلة لم يخب بحثه وسعيه فكلل بالنجاح فجاءت جميلة فأحببتها فقدرتنى ، وصارحتها ، فأحبتنى فرسبتُ عاما فسبقتنى وعرضتُ عليها الزواج فكسرتْ قاعدة الصمت ولم تجب ولم تكن موافقة ، فبعدت المسافة فدخلت الجيش فلاحت فى البعيد ، وخرجتُ من الجيش فأخذتُ الماجستير ، عملتُ مدرسا فضحكتْ فاستقلتُ ولم أجدها فسافرتُ الى العراق فناقشتْ الدكتوراه وعدتُ وتزوجتُ فاشترتْ سيارة ، فعملتُ فى شركة الكهرباء فسافرتْ الى السربون .

فأنجبتُ فيروز وعبد الحليم فرفتُ من شركة الكهرباء وعملت على الميكروباص ، أعدتُ الشريط فتنهد سيد الحتْ وعدل الطاقية ثم كبسها فى دماغه وأخذ يضرب بيديه على أفخاذه من حرقة الشوق وكأنما الأغنية جاءت على جرحه ثم أشعل سيجارة من نوع ردىء .

كنت أتأمل .. كل هذه الدمامة له وحده ؟

هل يمكن لهذا القبيح أن يحب ؟

أى مجنونة ابنة مجنون يمكن أن تنظر فى وجهه ؟

ثم كيف يمكن لمخلوقة من أى جنس أن تتخيل هذا الشيء على مخدتها ليلا .. أو نهارا .. كيف يمكن أن يأمن قاطع طريق على نفسه ويقفل باب حجرة على نفسه مع السيد الحتْ فما بالك بامرأة !

ضنَّتْ علىَّ الدنيا بالحب ومَنَّتْ على السيد الحتْ .

ونظرت فى المرآة أتأمل نفسى فمرت شجرة الكازورينا من وسط العربة ولم أشعر إلا وأنا بالمستشفى وكانت الحادثة عند قرية « قلما » وقلما يحدث هذا .

مات السيد الحتْ يحمل سر حبه بين جوانحه .

وكسرتْ يدى وضلعان وأغمى علىَّ .

وطبعا أخذ صاحب السيارة سيارته كما قلت لسيادتك .

هل هذا ذنبى يا سعادة الوكيل ؟!

من الذى جاء بالسيد الحتْ ليركب معى ؟!.. والى القاهرة ؟ ويجلس بجوارى ؟! من الذى أغرانى بالذهاب الى القاهرة ؟

ثم لماذا وضع صاحب السيارة مسجلا بها أصلا ؟!

الذنب ذنبهم جميعا وأنا لا ذنب لى والله .

قال الوكيل وهو يضحك : يا مفترئ .. والمرة الأخرى هذه المرة للجرار عندما سحب السيارة .

قلت مصححا : لا هذه المرة حملها صاحبها على عربة نقل .. أم المرة الأخرى فلا ذنب لى فيها إطلاقا .

كانت هذه المرأة – طالع السوء – غاضبة فى بيت أبيها .. وأنا تأكلنى الشهوة وتدفعنى النساء فى ظهرى بكلام وفى وجهى بعيون ، وأنا أخاف من الحرام اللين ولا أقدر على الحلال البين ، وكنت امتنعت نهائيا عن ركوب أى سيارة بها مسجل حتى أنفى شرطا من شروط وقوع الحوادث ، وكنت أصبر على بعدى عن فيروز وعبد الحليم ، أحببت فيروز يا سعادة البيك كأننى قدرها من خلال الراديو وعندما رأيتهـا بالتليفزيون لم تكن جميلة ولكنها قاتلة .

فيروز هذه تدخل القلب بلا استئذان كأنه بيت أبيها ، تكركب فيه وتدربك ، وتجرح وتؤلم قلت والله أعرفها لكن الزمان لم يجد بمعرفة بيننا . وكانت ابنتى فيروز عوضا عنها .

أما عبد الحليم فهو حبيبى وابن بلدى أحس كلما رأيته أننى أريد أن أخرج ما فى جيبى لأعطيه له . ورغم امكانيات صوته المحدودة إلا أن ذكاءه عوضه بالاستفادة من خبرة عبد الوهاب والشيخ سلامة حجازى ومحمود صبح وصعب عليه زكريا أحمد ومحمد رفعت وسيد درويش ، كان عبد الحليم قد قفز بتلك الخبرة الى صف أعمامنا وشيوخنا فى عالم المعرفة والأدب .

قالت الدكتورة زينب رئيسة القسم : هو يلحق بركب يحيى حقى ونجيب محفوظ ونجيب محفوظ الطبيب ، وجمال حمدان ومحمود مختار ، وسيف وأدهم وانلى ، ومحمود سعيد ، والسجينى وسمير أمين ، قلت لها : لكنه لم يلحق بركب عائشة الخباط ودرينى خشبة وعبد الحميد يونس والمتنبى وابن ميادة ، والليث بن سعد .

قالت : كل من قلت فأنا أعرف إلا عائشة الخياطة .

قلت : عائشة الخياطة تلك التى أرقصت دمى على نقر الدرابك ، مغنية قريتنا التى لم تؤرشف فى اذاعة أو تليفزيون أو صحافة أو ضمها كتاب

لكنها حفرت فى ضمير الناس والأشجار والحقول وما غناء الطيور إلا ترديد أو تقليد لها فلولاها ما غنت الطيور ولا صدحت ولا هدلت .

لكل هذا يا سعادة البيك أو لبعضه كنت لا أحتفظ بشرائط فى العربة وأيضا لكل ما حدث فى المرة السابقة ، بعد إذنك أشرب شايا وأدخن ..

قال : تفضل الشاى .

وصب لى الشاى وأخرجت علبة السجائر وقدمت للبيك واحدة فاعتذر فأشعلت غيرها ، وكان الشاى ساخنا وقليل السكر وجميل .

قال لى : نحن لم ندخل بعد فى تفاصيل الحادث الثانى .

قلت : هو ليس حادثا كما تتصور ، لم يحدث شيء إلا كسر فى الردياتير وشرخ فى الموتور لكن الصاج سليم والعجل والكراسى معظمها سليم .

قلت : دور مصر عن طريق بلبيس الصحراوى .

اكتملت العربة بلا نساء ولا بنات فى هذا الدور والحمد لله . سرت بالعربة بعد الاطمئنان على الزيت والبنزين والماء والأنوار والفرامل ، وعند المرور قال أحد الركاب :

– الراديو ساكت يا حلو .

كنت محروقا من الشهوة – ولا أريد مشاكل – فتحت الراديو ولم أغير المؤشر صدحت الموسيقى وأطلقت الإذاعة علىّ شلالا من العواطف ينوح من الجميلة التى فى خمارها الأسود .. فقلت حرام يا ناس .. حرام يا عرجى ، حرام يا ناظم ، حرام يا مخلوقات الشاى المغلى ، حرام يا مخلوقات الزجاجات الطويلة والمضلعة والمدورة ، حرام يا كلاب الشوارع ها أنا منذور للذبح يا ناس وأصبحت معتادا على هذه الصدمات .

أى عذاب هذا ، يذكرك بمن تركوك مع ذكرياتهم الجميلة ، ناسيا لهم رمى قلبك على أسفلت الألم .. أحسست برجة ما بعدها فزاد ضغط قدمى على الفرامل والبنزين وسمعت فى نهاية الضوء طقطقة عظام ، وأفقت فى المستشفى .

عرفت أن العربة دخلت فى مزلقان العصلوجى عندما كان مقفلا ليمر قطار الحادية عشرة والنصف .. ذنب من إذن يا سعادة وكيل النائب العام ؟!

ذنب هذا القطار الذى جاء ليمر فى هذا الوقت بالذات ؟

أم ذنب ذلك الراكب الذى سأل عن الراديو ؟

أم ذنب تلك الإذاعة التى أطلقت علىّ هذا الذبيح ؟

بالتأكيد هو ذنبهم جميعا وذنب السكة الحديد التى اختارت هذا الميعاد ليمر القطار ليس ذنبى والله يا بيك .

المهم أن هذه المرأة زوجتى علمت بالحادث وهى فى بيت أبيها فقدمت البلاغ اننى آخذ الحبوب وأشرب الزجاجة من عند فتحى عبد الملك . أخذوا منى البول بالقسطرة وأنا مغمى علىّ وجاءت نتيجة التحليل سلبية .

وعندما سألنى زميلك وكيل النيابة .. قلت له ذنب أى واحد إلا أنا ؟!

فأحالنى الى المستشفى الخاص للمجانين فقال الدكتور فراج : شيزوفرونيا .. قلت فى نفسى : أصبحت إبراهيم وإبراهيم يا ابراهيم وفلتُ من السجن أو الغرامة . بعدها بشهر رأيت الأفندى الذى سأل عن الراديو يسير فى الشارع يتوكأ على عصا بسبب كسر ساقه قلت : والله هى ذكرى لك لتجلس وتسمع الراديو كل يوم .

قال وكيل النيابة :

– يا إبراهيم أنت خيالى .. أنا لا أعرف لماذا وأنت المثقف لم تتزوج بواحدة من زميلاتك ، متعلمة ، بدلا من هذه المشاكل .

قلت له : يا سعادة البيك لا أنا تاجر خردة ، ولا صاحب شركة تصدير واستيراد ولا أتاجر فى العملة ولا صاحب بوتيك ولست ديوسا أو تيسا أو تاجر شنطة أنا يا بيك رجل ولكنى قليل الحظ فى زمن فتح ساقيه لكل ساقط ولص ومرتش وعديم الضمير وابن كلب وأعطانى على قفاى .

تعبت والله يا بيك متى سأخرج ؟!

قال الوكيل : تكمل الاجراءات فى الصباح وتخرج .

ونادى : عبد الباسط .

ودخل العريف عبد الباسط .

إبراهيم معك أمام الحجز لا يدخله ويأتى الى هنا فى الصباح .

★★★

– إسم الكريم .

– إبراهيم .

– قريب البيك ؟

– لا .

– توصية ؟

– لا .

– تنام فى الحجز ؟

– البيك قال معك .

- القانون قانون يا متهم .

- سأقول للبيك فى الصباح .

- قلت لى ما إسمك ؟

- إبراهيم .

- آه إبراهيم .. .. معك سجائر .

- نعم .

- هات .

- خد .

- واحدة .

-- نحن معا حتى الصباح .

- السيد الوكيل شديد جدا سأكلمه لك حتى يخفض لك العقوبة - هز يدك ...

- ....

- لا ليس هكذا .. بالنقود .

- فى الصباح .

- الكبريت موجود .

- خذ سيجارة .

- مفكوكة .

- انتهت السجائر .

- عبد الباسط - يا نكد - السجاير .

رد عبد الباسط على أصوات الحجز .

– سجاير – جردل ماء يا على .

فنادوا عليه :

– خلاص يا عبد الباسط يا جدع .. مبروك يا عريس عندك زبون (ستوتة) الليلة الدخلة يا عبد ...

زعق عبد الباسط ..

– خلاص يا مسجون خلاص خالص .

قلت لعبد الباسط :

– أولاد الكلب .. الكلاب .. يقولون كل هذا وأنت ساكت .

– هات سيجارة . – ليس معى إلا الكبريت .

★★★

قام عبد الباسط وأنا صاحى ، ليس معى إلا الكبريت ، والصباح يدخل مع عربة الدورية ، وكل عسكرى وصف يجرى على مكان نومه ، والعربة تدخن الضباب والسائق أعد نومته ونام فيها .. وأشجار البوانسيانا تشرب كل الصباح بنهم ، وتسترخى تحته والكل هاجع إلا أنت !!

وبعد ساعات تسمع من النيابة إما إفراجا أو حكما أو تحويلا أو اعادة التحقيق والنيابة تلف وتدور والسؤال الواحد بعشرة أوجه ، وأنت الصدق طريقك يا إبراهيم ، ماذا يحدث لو كنت خالفتها ولم تذهب الى بيت أبيها ؟!.. أصبحت مطية يا هيمة ، والله كنت تعرف أن الكيف وأعور العين فى انتظارك لكن كنت تستبعد الخازوق ، معقول بعد صلح ابنته يفعل هذا ؟! لا عاقل ولا مجنون يصدق ولما لا يصدق طالما هناك إبراهيم فكل شىء جائز يا ناس قالوها لى : انت طيب يا ابراهيم ..

وكنت أحس ساعتها بأنهم يقولون لى أنت أهبل يا ابراهيم .. قالها لك عبد الحميد يوم أن دخلت العربة الى قريتكم .

ومعنى أن تدخل عربة الى البلدة شىء عادى ، لكن عربة لا هى نقل ولا هى تاكسى ومقفلة من جميع الجهات ، حدث غريب ، والأغرب أن يكون لونها برتقاليًا . صحيح أن هناك عربات مقفلة تدخل الى القرية لكن تحمل المعسل أو الآيس كريم أو ما شابه ذلك ، لكن لونها برتقالى !!

كيف يمكن أن يحدث هذا ... وتقف بجوار مياه العباسة !!.. يا سلام تركت كل النسوة والأطفال الأوانى والجرار ونفضن اليد من الماء وعدلن الطرح ولمت كل واحدة صدرها المفتوح وبحلقت بعيونها فى العربة فتوقف الماء النازف من الصنبور .

فنادى المنادى : سمك .. الكيلو .. بأربعين قرشا .

جست كل واحدة منهن ما ربطت على طرف طرحتها وما دفنت بين الثدى والقماش وقلن فى دفقة واحدة : غالى .. فانساب الماء .

فتحت أبواب الصندوق المقفل الخلفية ، فنط أفندى وأزاح من الداخل منضدة وكرسيا .. وميزانا وقال : طابور فتوقف الماء .

أخرج آخر من جوف العربة مستطيلات مثلجة من الأسماك المتعانقة والهاربة فى لحظة الصيد إلى حضن بعضها .. فقالت النسوة روسى وتدفق الماء .

امتد الطابور حتى الجامع ، فقالت امرأة للتى جاورتها روسى فردت الأخرى روسى أو هندى . « سمك وخلاص » .

جاء عبد الحميد قابضا يسراه على رسغ يمناه خلف ظهره كحنظلة محركا أصابعه بالمسبحة متجها الى سائق العربة .

قال – السلام عليكم يا أخ .

قال السائق – وعليكم .

قال عبد الحميد – سمك روسى .

فرد السائق – نعم .

مد عبد الحميد يده وأخرج النقود وعد جنيها ونصف الجنيه .

قال للسائق : ثلاثة كيلو سمك .

قال السائق : فى الطابور .

قال عبد الحميد : عيب عمك عبد الحميد .

قال السائق – فى الطابور .

فقال عبد الحميد – الفلوس بها زيادة .

فقال السائق – الطابور يابنى آدم .

فقال عبد الحميد – افهم يا أخى – عمك عبد الحميد .

فقال السائق : افهم يا حمار .. الطابور .

أهدرت كرامة عبد الحميد وسقطت بين ساقيه على التراب بجوار البلغة فأدار ظهره للسائق وحمد الله أن أحدا لم يره وصرخ فى الطابور .

– عالم تاسع يا أولاد الكلب سمك من بلاد الكفار وقمح من بلاد الكفار البركة قَلَّتْ ... المصرف والترعة بهما السمك لكن عالم كسول جبان ... قَلَّتْ البركة يا أولاد الكلب من نجاسة أهلكم يابلد ...كان العمدة وشيخ الخفراء قد وصلا إليه وكنت قد وصلت إليهم .

فقالوا : إبراهيم حضر ... نأخذ رأيه فى الموضوع .

فقال : إبراهيم طيب وصاحب كلام ووجع رأس .

قلت له : الحكاية ليست بلاد الكفار ولا بلاد المسلمين .

قال بحزم : اسمع أنا أزرع قمح فى أرضى وأصطاد سمك من الترعة لا يدخل بيتى صنعة الكفار .

ونظر ناحية الطابور فنظرت معه ..

كانت زوجته تقف مع النساء فى انتظار السمك الروسى .

نظر إلىّ فابتسمْت فغضب وسحب نفسه يلعق جرحه وسار .

- يامتهم ولع .

- لا يوجد إلا كبريت .

- والفطار والشاى .

- حاضر .

ذهبنا الى البوفيه وأفطرنا وشربنا الشاى فقال لى : سأرسل أحد المعارف الى وكيل النيابة ، ونادى على عسكرى وقال له فى أذنه كلاما ... وعاد العسكرى وقال فى أذن عبد الباسط كلاما فجاء الىّ وقال : وكيل النيابة صعب ... تحدثنا معه بشأنك ... وضغطنا عليه ومنعناه من تحويلك الى المحكمة ... والحمد لله ... شهر واحد حبس مع الايقاف هات عشرين جنيها من أجل ذلك ... كان الحكم سنة بالتنفيذ ... لم أرد عليه فقال :

- يا متهم .. افهم ..

نادى المنادى : ابراهيم عبد العزيز .

ذهبت اليه فبصمت على الأوراق وأخذ البطاقة ثم أعطاها لى وقال :

- مبروك افراج لعدم ثبوت الأدلة .

قال عبد الباسط : مبروك .. الحلاوة .

- ابعد يا عسكرى يا عبد الباسط .. يلعن أبوك .

وقفزت فى الشارع بينما عبد الباسط يصرخ وينظر الى رتبته التى أهينت .

★★★

النهار يلف جلبابه القصير ويسير به ناحية النهاية والشمس مريضة بالصفراء وباردة وأنا من ساعة خروجى من النيابة مازلت فى الشارع .. والعمارات شاهقة والشوارع واسعة والعربات مسرعة والكاسيت عالى الصوت .. لا أمامها مزلقان ولا السائق بجواره السيد الحتْ ولا فى الطريق أشجار الكازورينا .. ناس لها بخت !!

الى أين يجرى الناس .. كل يجرى فى اتجاه .. هل بين الناس من له مشاكل أم أنا وحدى ؟

هل أعود الى البيت يا ناس ، ربما لا تعرف ما أنا فيه ، وكيف نامت وحيدة فى القميص اللبنى ؟ ، كانت طيعة ويبدو أنها تعرف هذا الملعوب اقطع الشك بالشك يا ابراهيم واذهب الى البيت فقد أكلت ليلة أمس البطة وباقى اللحم والأكارع التى للرفع لعل الله يرفع عنك هذا الغم .

المدينة هى المدينة الناس يسيرون كالمجانين لا يعرفون ما حدث لى وكأنما الدنيا بخير وبعضهم يضحك كأنهم يشمتون فىّ ، هل لم يحدث شيء ؟! ، هل أصرخ فيهم وأقول :

- هل عرفتم يا ناس ما حدث لى . هل سكرتكم علامة الرضا .

هل ضحككم يا أهل البندر علامة الشماتة ، يا ناس لقد خرجت من بين يدى عبد الباسط الكلب بلا سجائر وبنصف النقود نسفها كدودة القطن ، وكان يريد عشرين جنيها صنف وسخ ، لو ذراعى عسكرى بوليس لقطعته .

★★★

والله النساء معذورة أمام هذا التآمر الذى دبره أهل البندر الكبار ، فعرضوا فى كل واجهة ملابس وقماشا وأحذية ومأكولات تتصيدك وأنت الرجل من قلب الشارع وتقف أمامها تتأملها وأنت المفلس وتفاضل بينها وأنت لا تملك شيئا وتعرف من بعض الناس فى همس الأذن أن ثمنها ليس نقودا ولكنه أشياء كثيرة آخرها النقود .

آه ..

آه لو لبست هذا القميص الأحمر بقطعتيه الباقيتين ، القميص يكفى ولا داعى للباقى مصيرهما ينتهى بعد دقائق فلا داعى لهما . وابن اللئيمة صاحب الدكان لم يكتب الثمن عليه .. الثمن داخل المحل أو داخل الشقة يا أولاد الكلب أنا أفهمكم ..

لا .. هى فى القميص اللبنى أجمل وهى مكتنزة كحمارة كل أكلها فول .. لها علامات حسن فى الأكتاف وعلى جانبى الوجه وفى أسفل الذقن وخلف الركبتين وفى الإليتين .. ولكن لسانها يسيل الصلب فى الشتاء .

– ابراهيم ..

– خدنى معك .

ميكروباص أيضا .. الناس زحمة .. الدور بجنيه وعشرين قرشا .

اليوم كله بأربعة وعشرين جنيها لا غير .

– الأجرة .

– عيب يا ابراهيم .. بالسلامة .

★★★

البلدة هى البلدة تركتها والكهرباء تفرش الحوارى ورجعت اليها والكهرباء تفرش الحوارى .. لما تقف وحيدا ؟!

رغم أننى أتمنى أن أصبح مثلك ، وأريح العقل الذى لا يرتاح ، ترعى وحدك فى اللاشىء ، أكوام السماد مأواك تنقلها بالنهار وتحرسها بالليل ، صاحبك لا يتذكرك إلا ساعات العمل وفى ساعات الراحة يربط ويقيد أرجلك ويتركك فى الشارع وحدك عاريا بلا بردعة أو جوال يحمى ظهرك . تركوك تتلقى حرارة النهار وبرودة الليل .. الحمد لله أنهم لم يدبروا لك المقالب والخوازيق والله لو أنك بطة لبحثوا عنك ، لو أن لك بيتا وأولادا وزوجة لكنت ذهبت اليهم وآويت الى بيت أو ذهبت الى النيابة .. الحمد لله انك هكذا من يدرى ؟! ربما أنت تدرى مع أنك حمار لكنك لا تقول سأشهدك على ما أنا قادم عليه فرغم كل شىء أنا ذاهب اليها وهذا هو البيت فى آخر الشارع وصوتها عال لا يحتاج منك أن تقترب أكثر من هذا فاحمى ظهرى واسمع .

الأضواء التى تفرش الشارع تجعلك لا ترى أنوار بيتك لكنك تحسها فى صدرك وتميزها من على البعد .

كل هذا الطرق ولا أحد يرد عليك كأنما أقامت المرأة ألف باب خلف الباب هل يمكن أن تكون فى بيت أبيها ؟

لماذا تنهق أنت الآخر .. لا أحد فى البيت .. عرفت يا باشا .. آه ليست هناك أنوار فى البيت كان من المفروض ألا أطرق الباب لكن ماذا أفعل أنا وأنت فى الشارع فكر معى ماذا أفعل الآن ؟ هل أذهب الى بيت أبيها ؟!

لابد أن نصل قبل الصباح الى النيابة إذا ذهبت اليهم .

سيقولون لك شربت الكيف أم لا .. الحلو يتصرف ساعة الحكومة بمفرده لو جاءك الطوفان ضع ولدك تحت رجليك ..

أنا الغلطان .. لماذا ذهبت الى بيت أبيها .. اذهب الى أصدقائك وقل لها ذهبت اليهم .

أنت لا تكذب يا ابراهيم ؟

لا تكذب اشرب إذن حتى الثمالة .

أشرب .. لا عقل لك .. أهبل .. القميص اللبنى مفتوح .. عبد الحليم وفيروز يأكلان لبنًا مع الملائكة وأكلت البطة والأكارع جاهزة وبينك وبين الجنة قدم شبر ..

سيغضب منك السرير وسقف الحجرة لأنها لم تبصم بأصابع قدميها لا على السقف ولا على السرير .

يا ناس كنت أريدها ليلة جميلة فجاءت .. الحمد لله له فى ذلك حكم ها أنا ذا صابر على القضاء لا يلومنى أحد يا ناس بعد ذلك .. ولكنى فى صحراء اللاشىء أسير ، جثث هى المنازل ، ومتسولون هم أعمدة النور ورؤوس تطفو فوق برك الليل هى أكوام السماد ، وعيون المنازل عشيت من ضوء الشارع ، وكلاب أولاد كلاب من يجلسون فى المنازل فى آمان الله وأنا فى الشارع ويرشح من شقوق الباب والشباك رائحة المعسل والدفء والشاى والله هى أيضا بنت كلب الكلاب .

أحضرت اللحم فطبخت اللحم لى ولحمى لأهلها .

كنت أحس حين عدت اليها .. ولكنها ضحكت علىّ بالقميص اللبنى وأنا دنىء .. هى زوجتى صحيح وأنا الذى اشتريت القميص .. لكن كان لابد أن آخذ حذرى .. آخذ حذرى فى بيتى ؟.. أين إذن الأمان ؟ فى القبر ؟ ثم هل أقول لك اننى كنت أستطيع ألا أذهب الى بيت أبيها ؟.. لم أكن أستطيع .. وكان لابد أن أذهب .. ملايين الأسباب .. أولها أننى نفذت الشروط المعلقة على القفل بعد مبيت ليلة فى الصالة بعد عودتها بعد عام من بيت أبيها وبعد ذلك أننى أكلت اللحم وأنتظر الأكارع وأوسط الأمور أن هذه ليلة كأنها يوم الحشر وبعد ذلك وقبل ذلك القميص اللبنى يا ناس .

ولو لم أذهب لقلتم أنتم .. عيب .. لا تعقد الأمور .. ماذا كان سيحدث إذا ذهبت ؟.. أنت تبحث عن المشاكل ..

كنت أعرف أنها ستهاجم ولكنها خيبت ظني عندما دخلت عليها مستعدا للهجوم فدلقت عليّ قميصها اللبني وفتحت عليّ طبيخها الجميل واستعدادها الطيب فأطفأت نار الشك وأشعلت نار الشوق .. وأوصلتني الى أبيها الذي أوصلني الى النيابة .

ماذا أفعل مع بنت البغل ؟

هل سأظل هكذا حتى الصباح ؟

★★★

- ٣ -

من لى بهذا الاتساع فى الصـدر قدر رقعـة السماء ؟ من يرحم قدر كلمة ؟ ويحنو يكفينى ظلُّ كفٍّ مولود ممدود من هجير الناس ، والناس ألوان وأشكال كما النباتات والأيام ألوان وأشكال وأوزان ، قرية عجيبة وأعجب منها أهلها .

رغم كل الاتساع فى رقعة الأرض الزراعية فإنها تصرُّ على أن تتلاصق بيوتها وتضيق شوارعها ويزداد ضيقها كلما إتجهتَ الى المزارع حتى أن جاموسة عشار تمر بصعوبة الى الحقل من فوهة الزقاق وكأنما أراد صانعها أن يشعرك بقيمة البراح واتساع الحقول .

كل هذا السكون المفاجىء صاعق للقلب يضربه بحقنة الراحة ، فيغرقه فى أحلامه ، المدى خضرة ، والشمس مهندس الألوان ومدرج الدرجة وجابى الأشعة فى عليائها . والنهر منطرح مستتنيم كامرأة فى حالة خدر لذيذة قبيل فترة الوصل تنتظر .. والأشجار عرائس من كل صنف ولون ، تشهد زواج النهر بالأرض ، والنخيل تيجان المُلْك وصولجان الأرض وأعمدة الفضاء عليها اتكأت السماء وبصَّت على الأرض .

وجه واسع المدى لا يحدُّ ، خلف الزرقة الشاحبة بضوء الشمس القليل ليس قبل الآن سعيت إلا مرات قلائل لرؤية الليل يدخل الى تيجان النخيل

فاردا عباءته فوق صدر الدنيا .. تهرب منى دائما لحظة دخول النهار وسيطرته على الليل ورفع عباءته الثقيلة فوق رأسه وحواليه .

★★★

طوب وأحجار وماء ومساقى ومصارف ونباتات وحيوان وانسان وألوان وظلال وفاكهة وأبًا كلها كلها من طين وماء ، فسبحان من أبدع وشكّل وحل كل مشكل قادر على أن يحل ما أنا فيه من ألم ووجد .

أشكو اليك قلة حيلتى وهوانى على الناس وعلى زوجتى والحمد لله لم تهن نفسى علىّ .

وباسمك اللهم ، أدخل دائرة المحاسبة ، وأجالد النفس فى قلّة الحظ وعثرة الحال . وأحمدك اللهم حمدا لا ينبغى لأحد سواك على هذا البخت المايل ، والحال المعوج والضنى الممض أليس كله منك فلك الحمد لأنك تذكرتنى بضعف أيوب فى بلائه ويونس فى محبسه ، ومحمد فى خروجه ، فاجعل لى عودة حميدة لفتح بيتى فى وجوه من طردونى ، وأدم خطوى على أرض بيتى وبين أهلى وعشيرتى ، إليك أتجه ، وبك أعوذ ، وأصبح الزمان ظلام ليل لا ينقضى فأضىء قلبى لأرى ..

زادت ألوان النباتات دكانة وسوادًا .. أهو الحزن من همس قلبى ؟ أم أن لها حزنها الخاص ؟ ها هو الليل يدفع باقى جلبابه ويحكم عباءته على الدنيا وربما بصّ على الدنيا فيرى حالى فيرق لى ويفيض قلبه بالدمع .

فتح الليل طاقة جلبابه لى فشع القمر وأضاء ، وحان موعد العَشَاءْ ..العَشَاء بدت الأنوار كنجوم اقترين من الأرض ، أو كأطراف أصابع الملائكة متدلية من السماء ، لكأن الليالى كلها مباركة فى هذه الأيام بصحيح تشمخ المئذنة القصيرة بعلوها قليلا عن البيوت وبألوانها .. الأخضر والأبيض اذ لم

يتبق على موعد صلاة العشاء جماعة إلا إقامة الصلاة . المسجد مقصدى ، أفك الحصر ، وأريح الجوف ، وأتوضأ وأصلى المغرب والعشاء واذا قدرنا الله صلينا ما فاتنا من أمس واليوم .

★★★

مستطيلات ومثلثات الضوء المرمرية على الشارع تصل الى مستطيلات ومثلثات الضوء المرمرية من الجانب الآخر للشارع والخارجة مجهضة من البيوت ومن المسجد ، تلك المستطيلات الصغيرة التى أفلتت من خشب عتبة الباب العالية تبعثر الأضواء فى خطوط ظل منفرجة الزاوية ، العتبة التى صنعها عمى عثمان النجار لتدخل الهواء من فتحة الباب وتمنع الصغار من دخول باب المسجد ، وتجعلك ترفع جلبابك وتكشف ساقيك وتعدى من فوقها كأنك بلقيس .. الشيخ توفيق يلقى درس المغرب والعشاء .

– قلوبهم معك وسيوفهم عليك .

آه يا حبيبى .. أنا سيوفهم علىّ وقلوبهم علىّ ، والله يا عم ، وإذا كان حُرِمَ من الماء فأنا محروم من اللحم والأكارع وفيروز وعبد الحليم ، محروم من أسرار ليلة عاشوراء وما بعد وما قبل ليلة عاشوراء .

بهالات الضوء فى النجف والكهرباء بأصوات النواح من شدة الحب من كبرياء الألم والإقرار بالذنب من دوائر غير مكتملة سداسية الشكل ومثمنة ناتجة عن تعانق شكل رباعى الأذرع مع الشكل الآخر والمكرر وكأنما مسقط حلقات من رجال الذكر أمسكوا بأيدى بعضهم البعض يتلون انشاد آخر الأوراد بمسك الختام وشدةُ القبض على جلال الكلمة وانسياب روائح البخور الصومالية وخشب الصندل التى تضرب فى أطناب المكان فلا يعلو إلا اللون الأخضرِ يعانقه الأصفر معطيا درجة من ظلال اللونِ فى الأزرق والبنى بينما

أشَّرَ الأحمر فى بُعْدٍ ووضوح وحدد الأسود أشكال النهايات والبدايات ومواقع الاختلاط والفصل فى النقش كأنما صار الفنان روحا طليقة تهيم فى المطلق بعيدا عن القصور القاصر للواقع وأشكاله .

يمتد النقش ربما صاعدا ربما هابطا من ملكوت الجلال على رخام الحائط ، هكذا يصبح اللغز قابلا للتفسير كأنما النقش هو المتن وتأتى الحاشية والشرح فصل بين النقش وبين الشرح بخطين متوازيين يتعانقان فى تقاطع عقدى داخل التوازى .. ما بين التوازى العلوى والتوازى السفلى وبمساحة كف اليدين سماوات زرقاء اللون أهلت عليها كوفية الخط بادئة باسم الله وأسمائه الحسنى تدور فى أنحاء المسجد جامعة القبة والرواق وصحن المسجد واصلة الى المحراب فى ثلثه العلوى وممتدة فى مسيرتها حتى مواجهة القبلة فتعلوها (انما المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا) فى تواجه دقيق أعلى المحراب (فلنولينك قبلة ترضاها) بينما تنعقد ما بين عمودين فصل الختام ولوحة الأسماء وكلمة الفصل بنقش النسخ له طلاوة الدموع وحلاوة الروح (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) ثم يفسح التوازى مساحة للتأمل خالية من النقش يسودها بياض الرخام بعروق سوداء وحمراء كأنها دم سال على صحراء الخيانة وتجمد ممسكا بأطراف الزمان جاعلا شهوده موجعات الوجد وكلمات الإحالة دون ألغاز حاصرة ما بين نقش السقف وأعلى الحائط ، وجلال متوازى الخط عيون من الضوء طاقات نور ، عشق الزجاج والخشب واللون فصارت عيونا تبص على من فى المسجد فى ترفع وترسل الضوء الملون خارجة فى جلال ، آخذة فى حق صارم حق الشبابيك فى الرخام محددة لها مساحتها دون تفريط أو شح تاركة للشباك حقه فى تشكيل نفسه مع اخوته فى المنظومة العامة الى نصفين ، نصف اكتفى بالنظر من أعلى من وراء الزجاج الملون محولا مساحته الى نصف دائرة تشع أنصاف أقطارها

كالشمس ملونة ما بين كل شعاعين بلون جميل أمَّا النصف الآخر الخشبى فقد صار مستطيلين تجده من الخارج محلىّ بتقاطعات الخشب المخروط المعشق ومن الداخل أرابيسك الضلف كأنما كان يؤرشف ويدل دون أن يقول لفنون المشربية والتوحيد مكملا فى مسيرته أرشفة النقش للتاريخ ومبدعا فنا جميلا جميلا .. تمتد من خلف الرخام صحراء اللون الأصفر على استحياء ، ثم يأتى فضى اللون خطا واحدا تلتاث أسفله دوائر النقش ، فسيفساء السفسطة فى نظام هو أقرب للفوضى من شدة نظمه دوائر تقاطعت أقطارها مقسمة مركزها كمثمن الشكل فى صرة الدائرة ما بين أقطارها تصل أوتارها لتلامس نهايات مثلثات ، مثلثات تفصل بين مسدسات الشكل ومخروطيات النقش كأنما صراع فلسفة الكلام فى حلقات هى مدارسها ، كل سبع دوائر تنضم لعشر دوائر فتكون سبع عشرة دائرة فتنفر دائرة وتعتزل يسودها الأسود والأحمر ينبهك الى ما قبل القرن الرابع بينما دوائر الأخضر يسودها الأزرق والأصفر والأخضر .

الدائرة المعتزلة حولها دوائر كالأقمار بهم تبدأ وتنتهى حركة الدائرة، دوائر بأيهما اقتديت اهتديت الى حل لغز الدائرة الفرد والمجموع وينبسط النقش لا يحد حتى يأتى صف الرخام الأخير طالعا من الأرض الى الحائط فى مساحة الكف حاسما لخط النقش وامتداده .

هكذا هكذا فى لحظة واحدة ترى ما بالداخل والخارج ، عقود ، مقرنصات وقباب والزخارف النباتية - وتذييل الخط بزخرف النبات يذكرك بزخرف رؤوس الصور والآيات ، جامعة فى حضنها عصورا من الامتداد ما بين روح الفن التركى والايرانى والسلجوقى والمملوكى فارشا سجادة الطراز العباسى عن آخرها على رؤية النقش كأنما حلَّق صانعها بعيدا فى المطلق تاركا المحدود ، حتى أنك لا تستطيع السباحة فى محدود ، فترتفع مع النقش

خارجًا من ذاتك الى الأعلى داخلا فى دوامات نقش القبة مرددا وردا ، صاعدا بكليتك الى المطلق ومأخوذا عبر السقف من خلال مشربيات اللون الى سماء ، فتنتهك الكلمات وتلمس برودة النار وتحلِّق .

قلت : لعل برودة الرخام وحسمه بداية القرن الخامس الهجرى ، الذى ترك فى وجد الرخام بقية من دم أحمر وأسود .

تلتقى الأصوات على أعمدة الرخام صاعدة حتى تيجانها المكللة بالذهب الدموى والفضة فى نقش يخطف البصر ويعصف بالروح ، وترتفع الأدعية والنواح كل حسب فضله ، صاعدة على أعمدة البهو أو دخان البخور المتصاعد ، أو يجأر صاحبها بها ، فتخرج عموديا الى السقف لا تنحنى فتُمتص فى السقف والقباب لتخرج فى ليل الليالى المباركة من أعلى السطح أياد مرفوعة بالدعاء ، وأكفٌ ضارعة بشفقة الرحمة وطيور خضر من الضوء ترفرف فى أعلى المسجد تحمل فى حواصلها أرواح الشهداء مخترقة السقف ومعطف الليل وعباءته المثقوبة بالنجوم الى أعلى مغسولة بدموع الصبابة ودماء الندم خالصة من كل شائبة .

تذكرت وتذكرت .. وقال الشيخ فى المسجد :

– هو يوم عيد لأهل موسى لكن الحبيب المصطفى قال صوموا هذا اليوم فنحن أولى به منهم – لكأنه يعرف .

اللهم لك أدعو ارحم أهل البيت ، فالروضة لهم ، واعف عن من ظلمهم.

قلت فى نفسى : أهل بيتى يظلموننى يا شيخ ، وأنا أعفو حتى أصبحت لا أقدر إلا على العفو ثم أصبح العفو قادرا علىّ .

خرجت من المسجد الى أين يا ابراهيم ؟!

بالأمس واليوم الناس للطبالى والطبالى عليها اللحم والثريد والمرق ، حول الطبالى فرح كالذى كان عندك ليلة أمس يا ابراهيم ، فرح يفرش حصيرة الدار وأطفال مدوا اليدين الى الطعام وشهوة جعلت النساء فى الانتظار بعد الطبخ يغتسلن فى مختلس الوقت ويمشطن الشعور ، ويغسلن الوجه بالصابون النفّاش الأحمر والبمبى فيندفع اللون الى الوجنات ، ويلبسن القمصان النظيفة على اللحم ويتركن الدراعات ، ويكتفين بالهواء الطلق أسفل القميص ، وخوفا من نزق العيال يلبسن فوق كل هذا الجلباب الأسود ويتركن الصدر مفتوحا فيلمح الذى يأكل اللحم اللحم ويفهم .

وأنت يا ابراهيم لا تنكر مرت عليك ليال كهذه ، وكنت الفارس ، ولم تكن تحسب أن هذه الليالى ستصبح أنت فيها البطل ، لكن كنت وتصبب منها العرق وأكملتَ الأشواط بمجموعات ثلاث حتى تصبب العرق وقطعت النفس وعيونها ممتنة لك وشكرك السقف اذ رفَعَتْهُ أقدامها وشكرك السرير اذ زلزل كيانه .

لو سرت فى الشارع عاريا وقذفت الناس بالطوب هل يلومنى أحد ؟!

ألست أنا ابراهيم وهى بنت الكلب كما هى ؟!

تلف وتدور يا ابراهيم وتعود الى المقهى .

- مساء الخير .

- تفضل يا ابراهيم .

شربت من الدورق البلاستيك ، فالعطش يفتك بى ، والصداع مطارق إله غاضب ، حتى أنت يا قهوجى الزفت استطعت فى نفس هذه الليلة أيضا أن تلم أولادك وزوجتك أما تكفى ليلة أمس .

ماذا أفعل يا ناس ؟!

ربما تكون هذه الليالى مفترجة ، لا الشاى ولا الصداع ولا شىء .. ها هو شريط السكة الحديد والقطار يمر ، خمسة نساء ، عساكر ، كمسارية يعلقون بطاريات فى رقابهم ولا يكتبون ، رجل وامرأة ، طبعا فى ظلام القطار .

ويمر القطار وقد علقوا فى نهايته عينى شيطان حمراوين تخرجان لك لسانهما ، ويمر القطار .. الشارع بدون الناس صحراء ..

والناس أولاد كلب .. قالوا لك .

– يا ابراهيم زوجتك فى انتظارك .. أولادك يا شيخ .. الليلة مفترجة .

كنت أقول فى نفسى : هل نسيت يا ابراهيم ما حدث لك فى العام الماضى ثلاثة بلاغات .

كيف تذهب اليهم .. وهم الذين قدموا فيك البلاغ فى الورقة الكبيرة مستعينين بزوج أختها أمين الشرطة الذى يعمل فى مديرية الأمن وأخذونى الى النيابة وبعدها أفرج عنى فقدموا فى نفس اليوم بلاغا آخر وعندما وقفت أمام وكيل النيابة قلت له :

– هل أنت حسنى بك ؟

قال : نعم ..

قلت له : أرجوك يا سعادة البيك قم وافعل الفحشاء فىّ .

صعق الرجل وقال : هل جننت .. أحبسك أربعة أيام ..

قلت له : لا تحبسنى .. نفذ ما اتفقتم عليه أنت والسيد أبو رزق أمين الشرطة ، هو قال لى ، قال سأجعل حسنى بك يعاشرك كما تعاشر زوجتك لتصير هى الرجل وأنت الزوجة .

قال الوكيل : يا عسكرى رجب ..

دخل العسكرى رجب فدفع له بأمر الضبط والاحضار لأمين الشرطة ولوالد زوجتى وأجلسنى فحكيت له الحكاية فطلب لى القهوة ، وأفرج عنى بعد أن أخبرته أننى لم أقرب زوجتى ، وعدت الى المقهى لتقدم زوجتى بلاغا فىّ ببيع محتويات البيت .

قدموا البلاغ بأننى بعت محتويات بيتى أمس فقلت للوكيل : نعم بعت كل شىء وسرقت كل شىء أنا وحسنى بك وكيل النيابة .

وعندما بهت الوكيل الذى يأتى فى وردية غير وردية حسنى بك قلت له أطلب حسنى بك للشهادة فأهاننى وطلب حسنى بك الذى دخل فلمحنى وقال : كيف حالك يا ابراهيم ؟.. لماذا أنت هنا ؟

وعندما قال له الوكيل عما حدث أحضر له محضر الأمس وقال نعم .. كان ابراهيم معى .. فأخذت براءة وأخذوا حبسا لحين دفع غرامة البلاغ الكاذب .

وصالحتها ليلة الأمس يا ناس .

وأكلت اللحم والبط يا ناس .

ودفعتنى الى بيت أبيها .

كان بينى وبين الجنة خطوة .

فاذا بها ليلة ونهار كامل بالنيابة .

ليس من أحد يحمل همى إلا أنا وربما .. هو ؟! أحمد .

★★★

- ٤ -

النور ، الهداية ، الهدى ، الهَدْىُ ، الفنار ، المنار ، تقول للتائب والمريد هيت لك ، وتفرد ذراعى الضوء عن آخرهما وتبحث عنه فى عرض اللجَّة ، صغيرا كنت واللجَّة كبيرة ، شوارع وأزقة ، وبيوت طينية كمُنَ فيها السر ، وأسبلت وما نامت ولا باحت وفى باحاتها الجالسون غير مرئيين ، يحرسون ، ويكتبون ، بأيديهم الأقلام والنبابيت وتحت عيونهم الأوراق والأرض والناس ، البيت له نظام ومواعيد ، ميعادهم انطفاء النار وتوهج الجمر ، يترك لهم صاحب البيت القهوة فى البكارج بعددهم .

هذه البيوت وهؤلاء السكان الذين يتكلمون معى وأراهم ولا يراهم غيرى أخذوا عقلى معهم .

النخيل تحرس البيوت والأسطح ، تقف فى شموخ لا يطاول وتخترق فى عزة وكبرياء أسقف البيوت .. ولست أدرى لماذا تقطع الأشجار عندما تعترض سقف بيت أو توجد فى أرض سيبنى عليها بيت ، بينما يفسح السقف للنخيل فتصعد ويحتويها البيت داخله أو خارجه فتبقى .. لما كل هذا الدلال للنخيل ألأنها منارات الأرض وحملة الدعاء على أكف الرحمة - تيجانها - لنعرضها على الخالق الأعظم عندما يتجلى على الأرض وينظر فيرى أعمال العباد معروضة على أكفِّ النخيل .

قال أبو الشوارب طالع النخل وأول من قابل العم حفنى فى رحم زوجته :

– أسمع فى أعلى النخيل وشيشا وهسيسا وهمسا وأنا أكرمها أو ألقحها أو أجمع البلح .. هل سمعت طالع نخل يتكلم فوق النخيل ؟ والله لابد أن يسقط من مكانه .

قلت : والله صدق القول على أحمد قزاز .

لجتى هى الشوارع والأزقة وبيوت الطين وعكارة اللجة البيوت الحجرية ، أعمدة النور ونس ولصوصية ، تبص عليك من أعلى تبحث عما فى رأسك أين فانوسنا الجميل بزخرفه وحامله الحديدى المنقوش والمغروس فى ركن الدار والذى يشبه فانوس المسجد الكبير ، حيث يجلس العم محمد أسفل الفانوس .

العم محمد الطيب الذى أخذ بعد صلاة العصر فى الزمن الجميل الخمسة قروش منى ويوم الجمعة وفى العيد العشرة قروش ويوم نجاحى ربع الجنيه ، وعندما أعطى الزمن مؤخرته لنا كان العم محمد قد هرم وعندما ذهبنا الى بلاد الله للعمل رحل العم محمد .. كأنى به أراه واليد التى امتدت طوال هذه السنين فارغة حيث رأيته آخر مرة وهو يعيد اليد الى حجْره ثم يرفع يدا واحدة للسماء .

– لك الأمر ولو ربع جنيه واحد لعمك محمد .. ولا مليم ..

وكنت قد سرت بعيدا عنه فلا الرجوع يجدى ولا الدمع ينزل .

كان الجامع الكبير كما هو رفعت فوانيسه ورحل العم محمد وأقفل المسجد وأضيئت لمبات النيون بألوانها المختلفة فى أشكال بليدة فى واجهة المسجد .

كانت النافذة مضيئة ، دخلت من الباب فى ظلام السلم ، ونور فى الدور الثالث أمام شقة أحمد .

لماذا أتيت اليه ؟! هل أعود ؟! مادمت قد جئت فاطرق الباب .

– من ؟

– ابراهيم عبد العزيز .

– أهلا .

فتح الباب فطالعتنى قامته وخلفه صورة الجواد الذى يقفز فى البحر وعلى ظهره طرف السوط وفوق رأسه حلقة الحبل للإمساك به .

ضيقة عليك الأرض .. أم راحل من هذه الأرض الدنسة ؟!

جلست على الكنبة ، أعرف أن فوق رأسى صورة أحمد عمره عامان ووالده يحمله على كتفه وقد أطلق لحيته وفى ركن الصورة شقيقته التى تكبره قليلا ، وهى صورة بمناسبة ذهاب والده متطوعا للحرب فى فلسطين عام ١٩٤٨ مع الفدائيين . ولكن ليس له صورة بمناسبة عودته .

وعلى يمينى لوحة الجرونيكا وأمامى أحمد يجلس فوق رأسه قبة الصخرة وعن يسارى نصف المسافة حائط عليه مكتبة والنصف الآخر فتحة لباقى الشقة .

– شاى .. قهوة ..

– أعتقد أننى قطعت عليك خلوتك .

– لا .. أبدا .. شرفت ..

– طبعا أنت غارق فى أوراقك ولا تدرى شيئا عما يحدث فى العالم .

– كيف ؟! المجلات والجرائد والراديو معى باستمرار .

– لا أقصد هنا ..

– يا ابراهيم دع الملك للمالك .

– المالك أخذ كل شيء وربما يأخذنا أيضا .

– أنا أقصد .....

– أنا أعرف .. لكن قل لى يا أستاذ هل تكفى عشرة ملايين قنبلة ذرية لهدم هذا العالم واقامة عالم جديد .

– تكفى لتدمير الكرة الأرضية .. ولكن كيف البناء .. يبدو أنك متعب نشرب شايا ثم نكمل حديثنا .

– لأ .. ممكن آكل ؟..

– طبعا ممكن .

دخل أحمد الى المطبخ وعجبت من نفسى كيف واتتنى الشجاعة لأطلب منه ذلك ، حقيقة أنا أعرفه هو وزوجته وأولاده منذ أن كنت طالبا بالجامعة ، هـذا الرجل المثـالى الذى رفض كل شىء وبقى على المبـدأ ، رمـزا لشىء مجهول وجميل كالمستقبل ، تحمل الكثير ولم يتاجر بمعاناته رفض الثراء مع الرحيل أو السكوت ، رفض حتى أن تسافر زوجته اعارة ، وعندما قلت له كفى وكنا أمام محل (باتا) وهو يشترى له ولأولاده ولزوجته أحذية منها قلت له كفى حرام هذا قدرك أنت وما ذنب أولادك وزوجتك . قال لى :

– هل هذه الأحذية لا تفى بالطلب ، لسنا محلات عرض متنقلة .

كنت لم أدخل بيته بعد .. وعندما دخلت بيته ، كانت شقته متواضعة جدرانها بالمحارة لم يوضع عليها لا جير ولا زيت والأرض عارية إلا من سجادة من قصاقيص القماش ، وأرفف تملأ المكان بالكتب والمجلات وكمية هائلة من تسجيلات الموسيقى .. وجاءت زوجته فى ثوب بسيط منزلى نحن

نعرفها فهى أشهر مدرسة فى المركز والمحافظة ولها قدرة على تعليم الحجر ، كانت تلبس فستانا واحدا شتاء وفستانين صيفا ضارعوها فى الشهرة ، قلت له دعها تسافر فى اعارة ، سافر أنت ، أكتب للصحافة ، ألا تخجل يا أستاذ إذا زارك أصدقاؤك النجوم ؟!

ضحك وقال : مشاكلنا الآن تحلها ثلاثمائة جنيه ، عندما تسافر ستصبح مشاكلنا لا يحلها إلا ثلاثمائة ألف جنيه - ثم مسألة الخجل هذه لا تأتى من المظهر الخجل من الداخل وقيمتك فيما تعرف وتفعل وليست فيما تلبس .

قلت له : لا .. أنت كالسمك وبحر النيل بلدك لو خرجت منها لمت .

دخل أحمد يحمل طبق أرز وطبق السلطة ثم طبقا آخر به بطاطس وقطعة واحدة من اللحم ورغيف خبز قلت له :

- سآكل غذاء غدٍ .

كان قد دخل ليجهز لنا الشاى ..

الشقة صغيرة وباردة بدون الأولاد هؤلاء الذين لم يدخلوها الى الآن وبقوا فى شقتهم القديمة ، ولست أدرى كيف يدبر معيشته فى شقتين ، ويوم أخذ هذه الشقة كنت أغير أبلاتين العربة فرأيته يسير خلف عربة كارو عليها عفش ناديته ولحقت به وعرفت أنه أخذ هذه الشقة وعندما سألته لماذا قال بهدوء :

- انفصلنا ولكنى أزورهم .

- من ؟

- أنا والأولاد .

- لماذا ؟..

لم يجبنى واستمر فى حديثه كأنه قال شيئا عاديا وأنا فى ذهول ولم يسمح هو أو هى لأحد منا أو من الأهل بالتدخل أو معرفة الأسباب ارتفعت الاحتمالات ، لكن واحدا منها لم يصب كبد الحقيقة ولا حتى معدتها .

– الشاى .

– كيف حال الأولاد يا أستاذ ؟

– بخير كنت معهم ليلة أمس .

– طبعا ليلة مفترجة .. كل عام وأنتم بخير .

لم يرد علىّ ورفع الأطباق ، وكنت انتهيت من الأكل وغسلت يدى وجلسنا ..

– كيف حالك يا ابراهيم ؟

– هذا ما جئت من أجله ، ليست المسألة فزورة ، ولست تائها فى بيت جحا ، ولا المسألة تحتاج الى ذكاء ، المسألة تحتاج أن يكون الانسان حمارا وأنا لا أستطيع .

هذه هى الطرق السلمية والحربية والترابية والتبادلية والأسفلتية والمدقات والحوارى والأزقة كلها كلها ظاهرها طيب ، لكن ما أن تسير فيها حتى تؤدى بك الى الشرك أو تلقيك فى آبار عميقة جربت يا أستاذ كل الطرق وكلها تؤدى الى النيابة والدم ، عملت مدرسا وسائقا فى مديرية الكهرباء وفى القطاع الخاص ومع هذا ظلت عربة حياتى تتخبط فى طرق مظلمة وتضرب فى أجناب الطريق .

قلتم أنت المخطىء يا ابراهيم .. قلت لكم صح .

أنت منقسم يا ابراهيم ودراسة الفلسفة أفسدت عقلك .

قلت يا ناس أنا غلط .. وقلت أعـيش ودربت نفـسى على أن أكـون حمارا فماذا حدث ؟!

تركت لها كل البيت وقضيت وقتى كله فى العمل وعلى المقهى ، وعندما كنت أحتاج الى الراحة ، أعود الى البيت متجنبا القذائف الصاروخية المباغتة ، متجنبا جَرِى الى شراك حديثها المعسول حتى لا أقع فريسة لحسن نيتى وتنشب المعارك .

قلت لنفسى هل تود أن ترتاح ارتاح فى بيت الراحـــة ، كنت آخـــذ الجريدة والقلم وعلبة السجائر والكبريت وأدخل الحمام ... أرتاح ... وأخرج كالفأر أنام على الكنبة فى صالة البيت ، اذا جاء أكل أكله ثم أعود الى العربة فالمقهى ... وهكذا وإذا حدث ونمت على السرير فبإرادتها أصبحت بإرادتى ثورا يجرى فى ساقية الدنيا .. ولكن عزَّ عليها أن تتركنى أستقر ولو مهزوما .

أخـذتنى على غـرة من بين سطور الجـريدة وطوحت بى فى مـسـائل متشابكة عن النور والنيون والسجاد والفرش والفيديو وعندما قلت لها ان شاء الله بعدها بحوالى نصف متر تقريبا كانت قد وصلت حتى أحمد يا عمر !!!

عندها يا أستاذ لم أتمالك نفسى وأطلقت عليها صاروخ الطلاق بكل قوة وتحدٍ وعدم ثقة ، فقابلته بثبات الإستهزاء فدفن فى رمل اللامبالاة ولم ينفجر .. وكانت قد بنت على أذنيها سدا من الدشم المحكمة واستمرت فى خرط الملوخية .. رغم أن صوتى قد فرش الشارع والحارات وهى لا تسمع وأمام هذا كان لابد من فعل حاسم جعل دمها ينزف .. فخرجَتْ الى الشارع وقد تعمدت أيذائى فتركت دمها ينزف على الملابس والطرحة الجديدة ولم تزحهم قليلا .. وذهبت الى بيت أبيها والملوخية بلا طبخ فأطلقت احدى نساء الشارع من بنات الوسخة حكمة أمها الخالدة (عاد للخرة مرة وبيحلف عليها بيمين الخرة) .

وقالت أخرى : القوالب نامت والأنصاف قامت .. زمن أولاد السفلة .

أصبح الجو مليئا بالغائط والكلام ذى الرائحة فلملمت ملابسى حول جسمى وخرجت مهزوما ، أحاول إنقاذ نفسى من هذه المخاضة ، رغم إننى كنت أخوض فى كلام الناس عنى ، ونحن منذ أول أمس فى فصل جديد فأنا عائد الآن من النيابة بعد الإفراج وأبوها وعديلى هناك على ذمة التحقيق الى أين أذهب الآن .. وخاصة أننى لا أعرف موقفها مما حدث .

– استرح يا ابراهيم .. الدنيا كلها مشاكل .. لكن نستطيع معا وضع يدنا على أصل المشكلة .. سواء عند الآخرين أو عندنا ولا تحمل الناس أكثر من طاقتها .. أنا أيضا لى مشاكلى .

– مشاكل .. أى مشاكل لقد لفت بى الدنيا وفى كل مرة تلقينى فى مرحاضها وإذا رحمت فعلى أكوام السماد مكسور الظهر وأقوم وأقاوم .. ربما لا تعرف أننى قابلت ملايين المشاكل وكلها حلت إلا مع زوجتى وأهلها . فى شركة الكهرباء عندما اتهمنى رئيس الحسابات بأننى آخذ وأتاجر فى الحبوب والكيف وألعب مع النساء فى الشركة وخارجها قالها لى بصراحة :

– كيف حال النساء معك يا ابراهيم – غريب أمرك – أنت لا ترضى بك خادمة أريد أعرف ماذا يغرى النساء بك .

– يا سعادة البيك دع الملك للمالك .

– قلبى عليك يا ابراهيم لا تسوق العربة وأنت سكران ، كل يوم أراك فى مقهى حنا تسكر وتشرب الخمر داخل القهوة .

– لابد أنك كنت فى المسجد عندما رأيتنى أشرب الخمر داخل المقهى.

ضحك عمال الحملة والورشجية والسائقون فقال بغضب :

– لقد تجاوزت حدودك وأنا أتابع أخبارك .

– يا سعادة البيك .. أنا غير مهم حتى تشغل نفسك بى ، وأنت لست مخبرا ولا مسئولا عنى إلا وقت العمل .

– نعم !! سأعلم أبيك الأدب .

– اذهب اليه فى التربة .. مات .

– سأجعلك عبرة وسأرفتك وسأبلغ عنك بوليس الآداب .

– عنى أنا ؟! من كان بيته من زجاج ......

– ماذا تقصد يا سفيه ؟

انتهت هذه المحاورة به فى المستشفى وبى الى النيابة ثم الرفت ، كل هذا ولم يهمنى شىء .

– تشرب شاى ؟

قام أحمد لعمل الشاى وكنت أتأمل لوحة الجرونيكا هذه هل أنا هذه الرأس الصارخة فى البرية ؟ ، هل أنا كل هذا الحطام ؟ ، هل أنا هذا الثور ؟!

أحضر أحمد الشاى وأشعل سيجارة وقال :

– قد يكون لك الحق فيما تقول ، وقد تكون زوجتك وأهلها أيضا على حق وقد تظن أننى بلا مشاكل لا يعرف عنها شىء ، ولكن هذا غير صحيح فمثلا عندما انتقلت بعملى الى القاهرة كثرت الاحتمالات . وكان راتبى أصلا لا يصلح لرتق ما ثقبته الأيام فى جلباب حياتى ، ومن حيائى ألا أبدو ضعيفا أمام أولادى ، والتقيت فى ظروف خاصة بعد عمل شاق فى الزلط والرمل وتحميل السيارات ثم تركنى العمل بعد حادثة وتركت السكن بعد حادثة .. وعرض علىّ بعض الأصدقاء عمل فى مشتل للزينة ، كنت العامل والخفير والمهندس والخادم وهم مدراء كلهم وعلى وعد وجود استراحة للشركة قضيت

على كورنيش النيل معظم الليالى ، واختلفوا وحاولت جمع الشمل ولكن لم يريدوا ووجدت أننى الضحية فتركت العمل وبحثت عن غيره ، لست مسئولا عن نفسك فقط ، أولادك ، وزوجتك .

كلنا لنا مشاكلنا ، المهم كيف نعالجها .

– أحكى لك سبب ذهابى الى النيابة أو سأحكى لك من أول أمس حتى اليوم .

– لا سأحكى لك يا ابراهيم .

★★★

- ٥ -

كلمـا مـرت عـربات النقل وأنا فـوقـهـا وتحـتـى الزلط والرمل كنت أدير وجهى ناحية النيل من أول حلوان حتى مصر القديمة لأن لى أخوات واخوة يسكنون تلك المناطق ، فماذا لو رآنى أحدهم أو أحد أبنائهم ، لا تقل لى إنه عمل شريف فى هذه الحالة ستصبح أنت عار الأسرة ، يكفى أنك الطاعون وأنك الكذاب والذى يجعل من الحبة قبة ولكن أنت أيضا من يقصـدونه وقت الحاجة وعند شدائد الأمور أو لحسم خـلاف أو استعادة أمجـاد الأسرة القديمة ، أو استضافة ضيف .

ولكن عندما تزور أحدًا منهم تحس فى عيونه بالسؤال ، متى تنتهى زيارتك ؟ وتعامل ككلب ، وكل منهم يحذر أولاده منك ويسألونهم بعد خروجك .

– ماذا قال لكم ؟! لا تصدقوه .

ويعنف أولاده على لعبهم معك ، الأطفال يحبوننى فينسون التحذيرات وأنا أحبهم فأذهب اليهم .

قلت لهم مرارا : أنا لا أريد أن أراكم ، أنا آتى من أجل هذه الأطفال، ففاضت أعين الأطفال بالدموع فأمروهم بالدخول الى حجراتهم .

قلت لهم يا ناس أنتم من علية القوم ، وأنا لست منكم ، سأغير اسمى فاستريحوا ، لست الجرب الذى تخشون كذلك لست الزهرة التى يجف دمها فى عروات ستراتكم .

قالوا : أين نذهب منك وأين تذهب منا ؟ الطينة من الطينة والكعكة من العجينة .

وقال أحدهم : لو آلمنى ذراعى لقطعته .

قلت : اقطعه واسترح يا أخى ، أنتم الكعكة التى من العجينة ، أما أنا فالطينة التى من الطين فأى عبقرى جمعنا معا فى عذاب رحيم ؟

كنت أجد أسئلتهم على مقاعد المقاهى حرابا تنتظر جلوسك عليها أو ترحل ويأتون اليك ليتركوا لك الكدر والغم والإفاقة .

عند مصر القديمة كنت أنقر فى آخر دور على الكبينة لينتبه عوض .

- يا بنى آدم هذا الخبط فى رأسى .. انزل يا سيدى .

يقف فأنزل بملابس العمل وأسير بمحاذاة كشك الأمن الغذائى حتى بيت أم عصام . وعندما ترانى تمص شفتيها وتفتح الباب وتدخل الى غرفتها لا تخرج حتى أدخل الحمام وأغير ملابسى ولا تكلمنى فى شىء أبدا .

الى أن كان يوم ، عدت الى البيت ظهرا قدمى ملوية ، كنت أحمل المقطف وأناوله لزكى فوق العربة وأنا بجوار الصندوق أسفل العربة ، سرح زكى فى حاله وترك المقطف وظننت أنه أمسك به فتركته فسقط على رأسى ورقبتى فوقعت والتوت قدمى ، ونزل زكى بسرعة ونادى الريس عبد الباسط الذى وصله صراخى ، فنفض عنى التراب وأمسك قدمى يعدلها وأمسكنى زكى وعوض وكان صراخى يذهب فى البعيد فتمتصه الرمال حتى أغمى علىّ . وأفقت وقدمى مربوطة بشال عوض الذى أحضرته له أمه من الحجاز .

ناقص من المصدر

من ٥٩ الى ٦٦

قلت فى نفسى : مشتل فى الزمالك سندخل هـذا الحى ولو خـدم ومرابعين بعد أن كنا نحوم حوله وهو متحصن بفرعى النيل ، واذا دخلناه فمع أحد من أهله .. قلت هذا يا ابراهيم وأنا أسير فى ميدان عابدين ورأيت فى الميدان دورات مياه عامة ، فقلت فى نفسى : هذا لا يليق صحيح ان عرابى فك حسرة الشعب فى هذا الميدان ، والحكومة تريد الآن أن تفك حصرة الناس فى الميدان .

– وبدأت العمل فى المشتل .

– لا .. يا أخى .. المشتل فى الزمالك ومن الغريب يا ابراهيم انه كان على ضفاف النيل ندخله من أمام محطة نعمة من جهة العجوزة وكأنما أبى هذا الحى ألا ندخله ونسير فيه حتى لا نلوث أسفلت شارعه .

★★★

الليل سكن المتعب وعمل الفقير واللص ، شارع القصر العينى أقفل كل أبوابه حتى محلات الكشرى .. ربما لأنى أمرُّ من هنا .

لماذا يتسع الشارع وتعلو العمارات ويزداد البرد بالليل ؟!

هناك .. مازالت شبابيك مفتوحة يسكنها الضوء وجلسات حول الجوزة وحكايات وسِيَرْ مازالت تحكى .

عند نهاية القصر العينى انفسح المجال لنهر النيل فدخل عن يمينى .. قلت له اروينى يا نهر النيل الكظيم امسح جروحى وردُّ غربتى رُدُّنى الىّ ولا تحرمنى قربك فمنك الشفاء .

قال : حزنك ينتشر فى مائى ويحزن الوادى ، اليك عنى .

قلت : مزقتنى الكلاب يا نيل .

قال : غص فى نفسك .

واصمت ترى ، ولا تلزم القلب بالبوح إلا إذا فرّق اليأس قلبك واقتعد الحزن فيك الأمل ، وصارت عيونك لا تقرأ الذى لا يبين .

قلت : أراه كنقطة ضوء تنير هنالك وسط المتاهة ، كأنى بها أتقيها ، وحين ألتقيها تفارقنى أمسك الضوء فيها فتبعد تبعد ، أرنو اليها فأسمع فى عتمة الليل صوت ، فأترك دفء الفراش وأتبعه وأسمع من مدلج غامض لا يبين تقدم وتلمع فى الليل نقطة الآخذة فأجرى اليها وتجرى أمامى .

كانت عيون بوابات مصر القديمة عقود على شكل المحراب تتسع وترمقنى .

***

ثلاثة شوارع هو الشارع الرابع فى مواجهة كشك الأمن الغذائى المقفل على الجانب الأيسر من الشارع باب البيت ، طرقتُ الباب ، فتح الباب وكان الظلام غواية .

قالت : تفضل .

قلت : مساء الخير يا أم عصام .. هل النور مقطوع ؟ ومددت يدى لمفتاح النور فتلقفتها يد أم عصام وهى تقول مساء الهنا .. وأقفلت الباب وسحبت يدى بسرعة وقلت مكررا :

– هل النور مقطوع ؟

قالت بدلال : أنت النور والبنور .

كانت تتماوج أمامى انحدارات القميص الحريرى الأبيض على الجسد الرخص تتحرك أمامى وأنا لا أدرى نهاية هذه الرحلة ، فتحتْ باب حجرتى وقالت بهمس : تعال .

دخلتُ فبرزت فى نفس اللحظة من وراء الباب فاصطدمت بها فأمسكتنى رعشة الكهرباء حاولت التخلص والتملص بحثا عن مفتاح النور فوقعت بين يديها وكأن الحريق ابتدا .. حاولت التملص والبقاء ، الرغبة وعدم الفهم ، وفى محاولة للخروج من تضاريس هذا الجحيم ، كان الجسد يصطدم بتلال وجبال وقباب وكهوف وسحابتين تتحولان حينا الى كلابتين تمسحان ظهرى وصدرى وفى فوضى كل هذا عثرت على مفتاح النور .. فبصَّ علينا سقف الحجرة بعينه الكهربائية الوحيدة ، فتباعدنا .

كانت تلبس قميصا أبيض حريرى الملمس شبقى الفتحات وفردت شعرها كأنها استعارته من الليل وأضاءت عطرها فأظلمت الدنيا فى وجهى ، وتراقصت نهودها تحت القميص فهالنى الرعب وكانت عيناها بين الرغبة والرجاء ، وحمرة الاكتناز فى وجهها وصهد فرن يوم الخبيز يلف جسدها .. اتسعت عيناها بالدهشة فجلستُ على السرير وقلتُ فى نفسى : سيىء الظن أنا .

قالت وهى تفرك يدا بالأخرى : العشاء جاهز .

قلت : تعشيت والله يا أم عصام .

قالت وهى فى طريقها الى المطبخ : أنت دفعت الفلوس وطلبت تجهيز الأكل .

قلت : هذا للغد يا أم عصام .

كانت قد دخلت الحجرة تحمل صينية العشاء ووضعتها على الأرض ثم أزاحت كتبى جانبا ووضعت الصينية على المكتب ، وكانت الروائح تعبق فى جو الغرفة وتداعب الأنف والعقل وتسبح فى امتداد العمود الفقرى ثم تلتف عليك عند المقعدة فتهلكك ، سحبتُ المكتب حتى صار أمام السرير وكنت أرى .

صينية وصينية وطبق وعيش فلاحى طرى فَرَدَ واحد منها أجنحته ورمى نفسه فوق الصينية الأولى وكذلك فعل واحد آخر مع الصينية الثانية وترك عاريا طبق السلطة الخضراء . .

جلستْ بجوارى على السرير براحتها ، فكشفتْ فنظرتُ بسرعة ، فكشفت الصينية الأولى ، كان زوج من الحمام قد تكتف خجلا ووضع قدميه فى بطنه ربما من برد ، وكان العرق يتصبب منى ، وبقايا أجنحة عمودية على الجسد كأنما كان صاحبها يهمُّ بالطيران عندما فاجأته سكينة العشق ، (من يعطينى الآن القدرة على الطيران ، كلانا يا صاحبى بلا أجنحة ، وكلانا يا صاحبى وسيلة) أسفل الحَمَام قطع داكنة اللون من الكبدة تغرق فى بحر سمن ودهن واصطبغ الجو العام بالدم المحروق .. قلت : والله هى معركة .. كنت يا ابراهيم غير قادر على الفهم ، ولكن كنت أطمع أن يطرق أحد باب البيت رغم أنى لا أعرف أحدا فى هذا المكان .

ضحكت وعدلت شعرها واعتدلت فانكشفت فنظرت بدقة ، فكشفَتْ الصينية الثانية كانت الأكارع قد حمرت فى سمن بلدى بعد سلقها وواجهتنى كأنها سيقان رجل ضرب بالشوم والهراوات حتى سقط وقد تهشمت ساقاه .

قلت لها : الأكل جميل .. ويمكن أن ينتظر الى الغد .

قالت وقد غمزتنى فى فخذى : الغد له شكل آخر .. الأكل يدعوك فلا تنتظر .

ثم أردفَتْ بلهفة : معك سجاير ؟

قلت : نعمْ .

وضعت يدها فى صدرها وسحبت علبة السجائر من صنف لا أحبه وكانت مفتوحة هى الأخرى وقالت : خذ .. ودستها فى حجرى .

قلت لها بخوف طفل وخضوع رجل : لا أحب هذا الصنف .

وضعت يدهـا على كتفى ونظـرت فى عينى وقالت : جـرب قبل أن ترفض .

كنت فى هذه الساعة قد نسيت كل شىء إلا شيئا واحدا .. حتى صرت كالحمار وجسدى يؤلمنى حقيقة وعرقى يتصبب منى ويسرى فوق العمود الفقرى .

خلعتُ الجاكتة فأحضرتْ الجلباب وخلعتُ القميص ولبستُ الجلباب وسللت البنطلون واعتدلتُ على السرير فوضعتْ السيجارة فى فمى ، فابتهجتُ وقلت : يحدث ما يحدث يا ناس .

أنا بشر وقع فى حصار - إلاّ من أُكْرِهَ - يا ناس .

كانت ورود الدم فى وجنتيها تختـال فتغتال كل جسدى ، وكانت تنتفض ، أمسكت بيدى فانهرت وقلت : الكبريت .

فى السيجارة الثالثة ارتفع سقف الغرفة وكانت هى تتمرغ فى جوف الكون عارية اعتدلت فتأملتها وقبلتها فانقلبت وصارت كلوحة المعبد ، تأملت جيـدا تفاصيل التجـاعيد والزوايا من بروز وتداخل وفوهـات الكهوف والانقباضات وكذلك الانبساطات وتذكرت فوهة مدفع الماكينة الذى كاد أن يقتلنى فى الحرب قامتْ وأحضرتْ جهاز التسجيل وأدخلت فيه شريطا وأدارته وكانت قد اقتربت منى وضربتْ بحكة رأس العود الأحمر فى الجانب البنى فاشتعلت النيران كان الدخان الأزرق الباهت بروائحه العطرة يعلن أن السجائر مضروبة بالكيف .. انطلقت أم كلثوم : هذه ليلتى .

قلت فى نفسى : والله لا أعرف ليلة من هذه ..

صغرتْ أم عصام حوالى عشرين عاما دفعة واحدة وكلما أطفأتُ سيجارة أشعلتْ وقالت : اشرب يا سبع .. زين والله .

قلت : هل بعتنى للشيطان – آه يا دنيا .. ما أنا فيه بيع ولكن لست أدرى لمن لو كان للشيطان لقبضنا ثمنه ، وثمنه أن تكسب كل اللذائذ والملذات هو الذى أخرجنا من دائرة المسموح الى براح الممنوع نتجول فيها كيف نشاء هو الذى علمنا الكيف والمزاج والحلم وافتراع النساء والركوب ونصب الشباك للفتيات والاستهانة بكل شىء وقطع أواصر القربى ، هو نديمك ما بين الكأس والرغبة .. وصديقك فى همس الصمت ولغة العيون والأصابع ، وأنت وما تعلمت وجربت بعد أن لانت لك الأشياء .

قالت : لا أفهم لا تقلبها غمًا ، أنت ابن حلال .. وارتمت على صدرى وقالت مع أم كلثوم : الهوى انت .. وكنت والله يا ابراهيم على حافة السكين ، هى تسبح وتفح كحية طالعة بصدرها عند رأسى بينما مسيرة الزحف والحركة مستمرة من أسفل الى أعلى وأنا أحفر بظهرى هوة رعب فى السرير وأحاول أن أكون جامدا .. ولكن كنت كحمار ، وأحَسست وكأن المسجل قد توقف وعاد سقف الغرفة الى مكانه ونظرتُ ناحية الجدار كانت أمى تعض على أصابعها فارتخيت لحالى وصار حالى حالا فنفضتها عنى وقفزتُ من السرير وكان الجدار ينزُّ بدموع وملح ، فقامت ورائى وجرتنى من يدى وكنت شيئا مهملا كرجل البنطلون أو كلسان الحذاء القديم . عاجلتنى بسيجارة ، ودلكتنى وتدللت فاشتعلتُ ، وعرفت أننى أمام داهية .. ولكننى لم أستطع ليس عفة منى ولكن هكذا أنا .

الحقيقة يا ابراهيم لست أدرى كيف حدث ما حدث .. لكن هذا حدث أقصه عليك بكل تفاصيله وهذه هى المرة الأولى التى أحكى فيها هذا الموضوع ، قلت أضيع الوقت لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

قلت لها : نأكل أولا .

قالت : لن تأكل بنفس إلا بعدين .

ولما كنت أعرف أن حالتى هذه لا يحلها بعدين ولا قبلين قلت لها :

– لا .. أنت لا تعرفين .

فانتشتْ .

– أكلت الحمام يا أستاذ وطار عقلك ، كانت جدتى تقول إذا بدأت بالحَمَامْ فستنتهى الى الحمَّامْ .

– أبدا يا ابراهيم .. افهمنى .

عندما أمسكت بالحمامة الأولى أريد أن أفتح ساقيها ..

قالت : أكل الحمام له أصول .. يؤكل كالسندوتش .

ودستها من مؤخرتها فى فمى ، أكلت على طريقتها فلم يظهر لها عظام إلا فى الكتفين والساقين وغرقت أصابعى فى السمن ، وكانت تحشو فمى بقطع الكبدة التى أكلت نصفها وأعطتنى نصفها الآخر ، سال الدسم على كفى فأمسكت كفى وأصابعى ولحستْ ومصتْ فتألمتُ بقوة .

ودفعتُ بالحمامة الثانية ناحيتها ، فوضعتها بين يدى فاكتفيتُ بالجزء العلوى فقالت : لا .. هذا أهم ما فيها يا حلو ..

فأكلتها مادمت حلوا .

وذهبت إلى دورة المياه لاغسل يدى فوجدتها لامعة ، رغم علمى بأن كل دورات المياه فى المدن مستهلكة من الاستعمال العشوائى وعدم الصيانة والتخصص . كانت دورة المياه لامعة والمناشف مستعدة تسألنى الأخبار فطأطأت رأسى وقلت لها خيارتنا أصابها الشلل ، فزغردت المياه فى

الصنبور فغسلت يدى . رجعت إلى الحجرة كان المكتب يدارى نفسه أسفل صينية الأكل ويبص علىّ بعين كسيرة من بين أدراجه .

أزاحت المكتب بعيدا وحملتْ بقايا الطعام على الصينية وخرجتْ ، وكنتُ لا أستطيع تخمين ما يمكن أن يحدث بعد ذلك ولا كيف لى أن أتصرف فى هذا الحال المايل .

جاءت ووضعت شريطا بالمسجل ، ورفعت القميص الحريرى قليلا إلى أعلى وربطتْ وسطها بحزام اكتشفتُ أنه رباط عنق قديم كنت أربط به حقيبتى بعد أن تلفت أقفالها .

أخذت ترقص وسط الحجرة على أنغام الموسيقى وبين الحين والحين تدفع فى فمى بسيجارة مضروبة ، وكان الصداع قد جاءنى من جميع الجهات وكانت المرأة تمتزج بالماء فى المرايا وتدق وتستطيل ثم تنبعج وتميل على فأحس بالبرودة وتميل حتى تلامسنى فأحس أن الحجرة كلها تميل فأحاول أن أتحرك فأحس بالخدر فى جسدى وبرودة فى ساقى .

سرى الخدر فىّ فغفوتُ قليلا كانت نغمات شوبان تتماوج كظهر قطيع من الأغنام وينخفض الصوت قليلا قليلا فأعرف أن زوجتى تختبر صحوى فعندما أعود متعبا أجلس بكامل ملابسى على السرير واستمع إلى شوبان أو رحمانوف خصوصا كونشرتو البيانو (رقم ٢) فتخلع عنى ملابسى وتلبسنى الجلباب وتشد علىّ الأغطية وتخفض الموسيقى قليلا حتى أنام . ولكن لست أدرى لماذا أخذت تداعبنى وأنا لا أعرف هل كنت أخلع أم ألبس الجلباب حتى وقعت فى الفعل الحميم ، ولست أدرى ماذا حدث لزوجتى فقد صارت أكثر امتلاء وباحت بكلمات لم أسمعها من قبل .

وفى الصباح وجدتنى عاريا على السرير وبجوارى أم عصام عارية فكرهتها دفعة واحدة وأدركت ما كان وأحسست برغبة قوية فى افراغ معدتى،

فدخلت دورة المياه ، فضحكت منى المناشف وبكى الدش وغسلنى بدموعى ودخلت إلى حجرتى وبدلت ملابسى وقلت فى نفسى الرحيل من هذا الشرك وتغريب عام بعيدا عن مصر القديمة .

– ترحل !! إلى أين يا أستاذ ؟ ! هل هناك سكن أصلا .

– لستُ أدرى يا إبراهيم كنت أعلق آمالا كبارا على العمل بالمشتل والاستراحة وبدأت بنقل محتويات حجرتى شيئا فشيئا حتى تركت الحجرة وهى بالسوق ولم أحك هذه الحكاية لكن زوجتى كانت تموت غيرة من سيرة أم عصام بلا سبب .

– يا أستاذ كل هذا يهون فأنت فريسة شهوة وظروف ..

لكن زوجتى الملعونة تلك ستجعلنى أسير فى الشارع أرمى الناس بالحجارة هل تصدق أنها بعد ٣٢١ متر أقمشة مختلفة و ٩ أمتار من قماش الطرح و٣ منتوفلى و ٣ أحذية منهم واحد بلاستيك و ١٨ عصابة رأس سادة وبأوية وولد وبنت أحضرتهم من رحمها – والله يا أستاذ لو الشيطان نفسه ما كان يستطيع احضار هذه العيال من رحمها ، لكن ربك أراد ، بعد كل هذا تريد أن أطلقها ماذا أفعل وأبوها رجل مره وأمها كل شىء ، وأنا طيب وابن حلال وصاين العشرة ، ولا أحب كلام النساء ولا أرائهن حتى لو فيها الخير كله ، ماذا أفعل مع هذه الدنيا التى تصر أن تعطينى ظهرها وقفاها . هذا هو حظى عملت بعشرات الاعمال وتركتها لانها فى آخر الأمر صاحب عمل وآله وعامل . فصاحب العمل يريد أرخص آله وأرخص عامل وأعلى ربح ، وعندما نطالب بعلاوة أو منحه أو سلفه يقول لك الخزنة فارغة وبالليل تخرج الاوراق المالية بقشيش فى سهرات الطرب .

– والقطاع العام والحكومة .

– اين القطاع العـــام ؟ أين الحكومـة ؟ كلهم مـثل بعضـهم أصحـاب عمل .

– ياابراهيم المسألة ليست بهذه السطحية .

– لا تنظِّر ياأستاذ ، والله الحكومة والقطاع العام والخاص والاحزاب الاحزاب ياأستاذ ، دخلتها من أقصاها إلى أقصاها كلهم أصحاب عمل السمك الكبير صديق كل السمك الكبير ، والسمك الصغير عدو كل السمك الصغير ، يلومون عليك لو سافرت إلى بلاد النفط بينما تسافر اليهم بلاد النفط يقولون لك دافع عما تعتقد ، فتتغرس فى طين القاع بينما يتنسمون فى أعاليها أريجها وأزهارها كأنما انتماءاتهم نياشين تجمل فراء السهرات .تغوص وتلوص وتسجن فيقولون تجربة غنية ستثرى تفكيرك ، فستصبح صاحب أكبر ثروة من الأمراض الروماتيزم والحساسية والربو والتصاق الامعاء ولا تعرف عندما يتحدثون بكل الثقة هل هم يتكلمون عن الثورة أم عن الثروة ، والله ياأستاذ أنا غاضب من الحكومة والقطاع العام والخاص والاحزاب فهم مثل زوجتى تماما أحاول طوال الوقت فهمهم وهم يصرون على عدم الفهم حتى أننى أجد أنه لا حل لمشكلتى إلا بعقد مؤتمر دولى لحل مشكلة إبراهيم عبد العزيز ألست مواطنا فى هذا العالم مثل ناميبيا والسلفادور ؟ !

– ياابراهيم أنت غير واقعى ولم تعش مشاكل الناس وتتعرف عليهم .

– هم فى شغل شاغل عنى وعنك يجرون وراء الرغيف الذى صار أسرع من الكونكورد .

– ياابرهيم أقصد أنك لم تمارس العمل السياسى لتعرف مشاكل الناس و ...

– والله العظيم مارست واليك النتيجة .

عندمـا رشـحت نفـسى فى الانتـخـابات كنت أقـوم بجـولات لشـرح برنامـجى وفى قريتنا ، قـريتنا هذه ياأسـتـاذ ، جلست ومـعى عبـد الحـمـيد والسيد حرك وابراهيم العقر ومحمد أبو حميدة وأعور العين وبعض الناس ، وسـألنى أحد الطلبة عن سياسة الوفاق وعندما بدأت أتكلم نط عبد الحميد قائلا .

– وفـاق ... وفـاق ؟ لقد عـادت الحـياة إلى مـجـاريهـا .. وذهبت إليـهم وشربت الشاى فى بيت السيد والناس ...

وهكذا يـاأسـتـاذ سـاعـة من الرغى وأنا أتحـمل ، حـتى اسـتطعت أن أمـسك حـبل الكلام ، وكلمـا تكلمت هزوا رؤوسـهم ومـصـوا الشـفـاه ، وحـركـوا حبات المسبحة ، وعندما انتهيت من كلامى قال إبراهيم العقر .

– يعنى كل واحد يسامح مثل الدول الكبيرة .

أصـابنى سـهم الله فى مقتل ولم أتكلم وعرفت أننى أحـرث فـى البـحـر وكان أعور العين لا يتكلم وجـهه ناحيتى ولست أعرف هـل هـو ينظر إلىّ أم لا وعند خروجنا أمسك يدى وسار بعيدا عنهم وقال :

– كم سيدفعون ؟ هات الفكة وبعد ذلك ففتى ففتى

خلعت يدى من يده فقال :

– الرؤوس الكبـيـرة هى التى تريد وتفعل خلاف أو وفـاق ومـا نحن إلاّ هاموش والذى تراه الآن سينما وسينتهى الفيلم قريبا .. اكسب هذه المرة .. هل عشقت الخسارة .. ففتى ففتى .

صرخت فيه .

– أنت جبان وكلب .

ضحك يا أستاذ واخترق الديار إلى ليبيا وبلاد النفط التى أباحت له تغيير اسمه واختراق الأرض الزراعية وبناء بيت أسفله مسجد وأعلاه مقر للحزب الذى انتمى اليه بالقاهرة ، ولما سئل لماذا صارت عضويتك بالقاهرة قال :

– أنا من المؤسسين .

ولما كان الأساس لهذا الحزب – أن كان له أساس – قد وضع قبل أن يحضر من بلاد النفط فعجبنا هل تركوا له جزءا فى الاساس ليؤسسه .

ولم يكتف بهذا تزوج مسيحية وفتح السوبر ماركت وأخذ باسمها ترخيص لبيع الخمور والبيرة ، وحج عشر مرات ، وتاجر فى كل الاشياء ، وأصبح شيئا ، وأنا مازلت أبحث عن أى شىء .

– هذا ليس هو النموذج المطلوب ، انه مثل أمريكا ، لا حضارة ولا أهل ولا .

– لكنها موجودة وقوية وقادرة وتفعل ما تريد متى تريد كما تريد لمن تريد .

– هذا غير صحيح فارادة الشعوب .

– لا ارادة لضعيف .

– أنت متشائم وترى الكون أسود .

– لا والله أنا سأموت من التفاؤل ، هذا حالى مع زوجتى ومع العمل أما مالا تعرفه فيدعونى إلى التفاؤل أكثر . مثلا هل تعرف أن جسمى يرسب أملاح ضده رغم أنفى طبعا والله لم أنصحه بهذا .

هل تصدق أن أصاب بتلوث فى الدم ونسبة الاصابة به واحد فى المليون ووالله لم أطلب أن أكون هذا الاستثناء .

إلى جانب الاشياء الطبيعية والبسيطة طبعا مثل الروماتيزم والصداع النصفى والعصب الحائر مثلى والقولون ناهيك عن مشكلة ساقى اليسرى وأثر حادث العربة بها ومع هذا متفائل وأريد أن أعيش مليون عام ولكن الدنيا لا تريد أن تصالحنى أبدا .

حتى عندما أتزوج أجد زوجة تحتاج إلى أمة وحضارة حتى تصلح لسانها فقط وعندما أعيش أحتاج إلى مؤتمر دولى لحل مشاكلى ، متفائل متفائل ياناس .

– ياابراهيم أنت لا تريد أن تفهم ، أنت المسئول عن اختياراتك لا تحملها فوق طاقتها ولا تطلب من الناس مالا تستطيع أنت عمله ، حل مشاكلك بنفسك وكن قيما عليها .

– وهل وجودك هنا ياأستاذ حل لمشكلتك مع زوجتك وأولادك ؟

★★★

- ٦ -

حقيقة لا يمكن تحديده . إنه منتشر ، يحتوى أكثر مما تسمح وأعمق مما تعرف ، يحتوى ضمن ما يحتوى قريتنا وقرى أخرى .

ربما مدبب الرأس كالسهم لين الريش ، يدخل إلى دمك لا تحس به وينتشر بك موازيا له لتكون أنت الذى تحتوى ما كان وما هو كائن وما سيكون .

إنه صوتها ونقر درابكها . يصلك أينما كنت واضحا جليا شجيا ، كان يوقظنى من النوم وأنا فى البعيد عن قريتنا ويدخل متسللا إلىّ يملأ المكان ويفيض من النافذة وشقوق الباب . وما زال يأتى ولا أعرف من أين ؟ ظللت عندما أسمعها أتوقف عن السير ، عن الأكل ، عن الـ ... ، عن كل شىء ، أبقى ساكنا ذاهبا اليها بدمى . أحاذر أن أراها وعندما رأيتها كانت هى : هى ... وقد رأتنى ونفذ السهم . فى هذه اللحظة تنهار جبال شاهقة من التفاصيل التى تسد الرؤيا فلا يبقى أمام ناظرى إلا الأصول ، أصول التفاصيل ، أجتماع النقيضين ، وميوعة الفوضى تتماسك ، وصلابة الجمود تأتى ، تنهار كل الجبال كأنها كوابيس قد انزاحت عن النفس ، فأحس أننى انفلت كالنصل العارى من بين آلاف القيود والاغلال ، انفلت من عسف يسترق الروح فى الجسد واقع فى قيد لا اختيار لى فيه .

هى التى تسرقنى منى وتخنقنى وتربطنى إلى عيون من الزبرجد والياقوت وتطلق علىّ روائح العطارين ، فأنتشى بالقرفة والقرنفل والزعتر والزنجبيل والكراوية واليانسون والحلفابر ، فأحلق مع جوزة الطيب ، واللبان المر ، فافتت حصى القلوب التى قدت من حجر صوان ، وأجعل الثغور تبتسم فأخرجها من أسرها ، وأسقط أنا فى الاسر ، فى أسر تلك العيون الحوراء والرقبة الطويلة الضخمة التى تفرش الصدر كجذع شجرة .

وعندما قلت لها ذلك .

قالت : أنت ولد قليل الأدب والحق علىّ أن أجلستك بجوارى وحكيت لك مالم أحكه لاحد ، لكن الأمر ليس بيدى

– بيد من ياعائشة ؟

– يامجنون بيد من هو بيده ... أنا مكلفة ...

– أنا لا أحبك ولا أحب صوتك ولا غناءك ولا نقرك على الدرابك ، وأنت نصابة تغنين للناس بالأجر .

انتفضت عائشة الخياطة فزعة ، وأشارت إلى رقبتها وقالت :

– أنا لا أغنى ... هذه ليست رقبتى .

– أعرف انها رقبة جمل ، وخالية من الجمال ، وعروقها نافرة ، هل سرقتها أمك من جمل ؟!

صرخت فزعه :

– اسكت .. لا تكمل ... هذه رقبتى نعم ورقبة فاطمة السبعة .

– من فاطمة السبعة ؟ !

– لا تكن لحوحا .. ماذا أفعل معك ؟ صرخوا فى أذنيك وأنت صغير ،

وقالوا لك ماقالوا ولا راد لما كان ... إسمعني يا ضنايا فاطمة السبعة هي أحلى صوت نطق على ظهر الأرض وباطنها ، هي التي سكن في رقبتها سبعة مغنيين ، نصفهم من الإنس ونصفهم من الجن .

– ياعائشة ... إتقي الله هذه مغالطة واضحة ، السبعة ليس لها نصف خاصة إذا كان العدد في أحياء ، هل في رقبتها ثلاث جنيّات ونصف وثلاثة من البشر ونصف ؟

– نعم

– كيف ؟ !

– ثلاث جنيّات أبا وأما ، وثلاثة بشر أبا وأما ، وواحدة أمها من الجن وأبيها من البشر .... هل فهمت ياوجع القلب .

احمرت عيناها وتحول الحور إلى حول فهالني ما هالني وفزعت ، فابتسمت ساكتة ، فلمعت أسنانها الذهبية وأمسكت بيديها الدرابك ونقرت ووقعت وغنت ... فانفسح المجال والأفق وهلت الطيور من كل صوب ، تقف باسطة أجنحتها في الفضاء الفسيح ، وتناكحت الاشجار وشبت تطل علينا من فوق سطح الدار ، فتمايلت حيطان الدار وأزّ الباب واستند على الحائط من وجع ألَمَّ به ، وكانت هي تتماوج ما بين الغياب والحضور ، وصوتها كليّ الحضور يسري في دمي فيراقصه على نقر الدرابك .

ونظرت في تماوج الحضور إلى رقبتها ، كانت غليظة ونافرة ، أضخم من رقبة جمل ، لا تستعير نفسا ولا تسرق شهيقا ، كأنما الرقبة مقسمة ومدمجة لتفاصيل أجسام المغنيات التي تبين قليلا وتغرق في تماوج الغياب وصعود النغم وتبقى أمام عيني ، هذه رشيقة القد ، وهذه ثقيلة المؤخرة وهذه ... وهذه ....

أكثر من سبعة وربما تضاعيف هذا الرقم .

غنت وأربكت دمي وسال العرق منها فغرقتُ في عرقي ، وانتهت من غنائها ومسحتْ عرقها بطرف شالها ، ومسحتْ عرقي بطرف شالها فبلل العرق العرق وامتزجنا في شالها ولم يسمع إلاَّ خَاقَ بَاقْ .

وكنت أصفع بالسؤال . ابنة من هذه ؟ ، ومن أين أتت ؟ ، كم عمرها ؟!

قالت : لعلك أكثر هدوءا يا جميل .

كنت أحسها في دمي .

– ستموتين ياعائشة .

– لا يموت أحد ياحبيبي .

– أبي مات ، وأمي ماتت وذهبوا إلى المقابر ولم يصطحبوا أحدا منا .

– أنهم ينامون تحت القبور في جوف الأرض ، حتى إذا ما جاء الليل، تركوا أكفانهم ، وساروا من تحت الأرض إلى البحار البعيدة يسوقون لنا الاسماك والحيتان والقراميط ويعبرون بها من تحت السدود والقناطر والموانع ويدفعونها أسفل الأرض إلى السواقي والطنابيش والانهار والترع . فلولاهم لمتنا جوعاً . انهم يحملونها على أكف الرحمة ويوزعونها بأيدي العدل .

– وكيف يتركون أكفانهم وقد ربطناها عليهم وما كشفنا غير الوجه .

– هل تصدق أن (أبا المجد) يستطيع دخول القبور ومواجهة الجسد المدفون في كفنه ، ثم يخلص الكفن منه ... لا تصدق ... كان سيموت رعبا ... هو ينتظر حتى يأتي الليل ، وبعد العشاء عندما يخرجون من أكفانهم في دورياتهم الليلية ، فيدخل إلى القبور فيجد الأكفان خالية منهم فيأخذها ويكسو أولاده منها .

وقبل آذان الفجر يعودون ، ونراهم آخر الليل فتقول (وارد التربة) كأنما هذا الوارد هو حارسها . يدخلون إلى قبورهم فتتمايل النخيل بتمام الوصول . ويدلفون إلى أكفانهم ، فتنطلق أصوات الديكة ، ويتنحى الليل ، وتبدأ نسائم الفجر ، فيرفع المؤذن الآذان .. الله أكبر ... فيرتاحون فى قبورهم ، هى رحلة شقاء للشقى ورحلة راحة للطيب ولو كانوا يموتون لما قلنا الدار الآخرة .

– ولماذا السمك ياعائشة الأنَّ النساء تحب السمك ؟ !

ولماذا لا يوزعون علينا النساء والقمح والخمر مثلا .

– ستجن من النساء ومما فى رأسك ولسانك ، أسكت ولا تسأل .. لى حدود فى الإجابة ، ولك حدود فى السؤال ، ولا تتجاوز ، سيحرقونك ياحبيبى دمعت عيناها فاهتزت ثقتى فقلت لها :

– طز لا أريد أن أعرف من هؤلاء .

بكت وأخذها البكاء فأجلسها فوق قلبى ، فصمتُّ ، شهقتْ ووضعتْ رأسها على ركبتيها واهتز جسدها من النحيب ، فأدخلتها فى قلبى وربتُ على كتفيها ولم أتكلم ، فعانقتنى واتصل الصمت فكان الألم وكان دمى يرقص من نقر درابكهاوعرقى يسيل على عرقها وترتفع التفاصيل وتبقى الأصول فى وضوح الجلال فتتموسق الدنيا ونغرق فى عرق مالح .

★★★

قالت : أرحمنى ما بقى لنا فى هذه الدنيا إلاَّ أنت ، سيوصيك العم حفنى وسيعلمك حتى تظن أن لا معلم إلاَّ هو .

لكن أنا أبلغ آخر الرسائل والعم حفنى أولها وما قبله تدريب وما بعده تمام الكمال وبداية الإجتهاد للوصول بالعقل إلى السمو المتخيل المكتمل وأنا

آخر الاكتمال الأول ، وكل يسعى فى طريقه ، وكل على قدر زيته يضىء فلا تسفِّه أحدا منهم ، فكل فى داخله سلطان ، لا تكن جملا أرعن ، فغدا تثقل الحمولات ظهرك ، وتكتوى بنار المعرفة والحكمة قبل الاوان ويثبتُ وجهك بملامح كل البشر ما بين الثلاثين والأربعين ، ويمتد بك الأجل كارها ، فارحم الناس من فحش قولك ، وتحمل ، وتجمل بالصبر ، حتى يحين الحين .

- هل الحق ما تقولين ؟

- ليس كل الحق يقال .

- مزقتنى الكلاب ياعائشة ، مزقتنى الكلاب .

نفضت ثوبها وقامت ... دخلت حجرة أخرى ، وكنت أبكى ، فسمعتها تحيٍّ وترحب فعرفت أن زوارها حضروا من وراء الدنيا ، وأن موعدى فى اللقاء انتهى ، فخرجت إلى الشارع الوسيع أرتجف ، وكان الليل بتمامه وكماله فوق أسطح البيوت وقد رفع طرف عباءته الكبيرة السوداء فوق رأسه فحجب القمر .

- وهل علمت زوجتك بذلك وبحبك لعائشة ؟

- عرفت ياابراهيم .

- كيف ؟ !

- من عائشة .

- كيف ؟ !

- بعد أن قطع علينا صوت عائشة الطريق وكنا فى زيارة أحد الاصدقاء بالقاهرة . وعدنا بالليل ، كانت النخيل تفرد تيجانها تحت ضوء القمر فى شبق عجيب ، والأرانب ترهف آذانها وقد سكنت أنوفها عن الحركة، وخرست الألسن حتى حركة النفس فى الصدور ... كلها أوسعت لعائشة لتحتل

الكون فاحتوتهم عائشة فقطع صوتها علينا الطريق وكنت قد توقفت تماما عن المسير ، فدخلت زوجتى عليها وسمعتها ، ورأتها عائشة فعرفتها فأشارت لها وأجلستها بجانبها ووضعت يدها على كتفها ونقرت بكف واحد حتى انتهت من غنائها فقبلتها وتحادثنا .

وعادت زوجتى لتعتبر ما رأته حاله . ولم تسألنى عنها ، ووضعت ما سمعته على حدود التصديق ، واعتبرت ما رأته رؤيا وما سمعته خرافه ، وأحبت عائشة .

★★★

- ٧ -

الصاج المعرج فى مواجهة الشارع ، إلا القليل منه مرفوع يكشف عن واجهات وأبواب متناثرة ، ووكالة أنباء الشرق الأوسط تقف كلغز فى وسط الشارع ، وفلفلة بفتحتيها كأنما أرادت ألا تترك شارعا إلا وتواجدت فيه .

أمام المقهى كان يقف بنصف سيجارته المشتعلة وينظر الى الأمام :

– صباح الخير .

– أهلا يا أستاذ .

– اليوم الأحد أين الناس ؟

– ربما فى سفنكس أو بعد قليل يحضرون .

دلفت الى الممر لم يكن هناك من أحد حول عربة السندوتشات إلا بعض الصبية من تجار العملة والمستعدون للقيام بكل العمل للسائحين والسائحات . دفعت خطوات الى مقهى (ريش) كان (ملكْ) يقف كالصقر العجوز ، وعبد التواب يعمل مكرها ، ومحمد مهران السيد وعلى سالم وعبده جبير يحتسون البيرة ، وبهجت جلس وحيدا أمام زجاجة بيرة حتى منتصفها والكوب فى يده.

وضع الكوب على المنضدة وقال :

– يا ملكْ .. أرجو ألا يأتى عبد التواب الىَّ إذا احتجت أى شىء .

– حاضر .. أهلا يا أستاذ .. قهوة سادة .. صح .

– ممكن .

★★★

على شاطىء النيل توقفت سيارة الأجرة ودخلت أنا وبهجت من باب خشبى الى طرح النهر وطالعت صفحة النيل وقلت يبدو أنه لا فراق .

قال بهجت : هنا آخر الحد بيننا وبين المعدية وأول الحد فى آخر حدود عمارة التونسى وهذا الكشك الخشبى استراحة صاحب الأرض .. ونحن أجرناها منه لعمل مشتل ومعرض لنباتات الزينة ، أرضنا الحقيقية فى بنى سويف ، المهم أن نشغل الأرض ببعض نباتات الأسوار ومصدات الرياح ، لنستخدمها فى تحديد قطع الأرض ببنى سويف .. معك فلاح سيحضر غدا، وأريد ميزانية تقريبية مع خطة عمل .

قلت : نريد دفترا للحساب خاصا بالمشتل .

قال : ليس لك شأن بأى شىء .. كل ما عليك إنتاج الشتلات فقط .

★★★

هنا محل عرض نباتات الزينة ، هنا السور ، هنا صوبة زجاجية ..

أقفل الأوراق وقال استلمنا اليوم مكتب الشركة فى شارع فيصل بعد أيام نستلم الاستراحة .

المنطقة منطقة خاصة مثلا نباتات القشطة .

– أى نوع منها ؟!

– أى نوع ثمنه غالٍ جدا أربعة أضعاف السعر فى أى مكان .

– المهم أن نقدم نباتات ممتازة وجديدة بأسعار معقولة مثلا سأقول لك أسعار جولتى فى المدن بالوجه البحرى فى صنف القشطة .

القشطة ورق العنب : ستة جنيهات

القشطة المتسلقة : ثلاثة جنيهات

القشطة الصغيرة : خمسة جنيهات

القشطة ضلوع الانسان : أربعة جنيهات

قال : لا تبدأ من الأصغر خمسة عشر جنيها حتى خمسة وعشرين جنيها .

★★★

أسفرت رحلتى السابقة فى مدن الوجه البحرى وحوارى معهم أن الأمور ليست كما تظهر للعيان .

قال لى : وصفى سيبدأ العمل فى السور يوم الأربعاء نرجو أن تكون المنطقة جاهزة لعمله .

– لم يحضر الفلاح الى الآن .. نريد ماكينة رفع مياه من النيل لرى المشتل وبذور وتقاوى .. كما يلزم أربعة رجال أشداء لاقتلاع الجهنمية من السور حتى يعمل وصفى هذا .

أعطانى عشرين جنيها وقال اعمل ما تراه صحيحا .. المهم المنطقة تكون جاهزة الأربعاء وسوف نتحاسب على كل شىء .

★★★

فى الساعة الرابعة اشتريت منشارين وذهبت الى المشتل ، لبست ملابس العمل التى كنت ألبسها أيام الزلط والرمل ، وفى التاسعة أحسست بالجوع ، بحثت فى الحى عن محلات للطعام .. كانت الأسماك الكبيرة الحجم تنام وسط الثلج وراء الزجاج ، ودكان خاص لبيع الرنجة فقط واللحم عند

الجزار قطع وتقطع مكعبات وشرائح وتلف فى ورق أبيض شفاف ولست أدرى لماذا كلما سرت فى أحد الشوارع انجذبت عيون الناس لى أمن وسامتى أم أنهم يعرفون بعضهم وأنا الغريب الوحيد ؟.. دخلت الى سوبر ماركت التونسى ، حمولات من معلبات وأقراص كبيرة وصغيرة وأشياء لا أول لها ولا آخر وألوان وروائح حتى زجاجات ماء من كل اسم ولكن لونها واحد أزرق .

كانت الأضواء كاشفة لسوق الطعام ، وكانت تسير أمامى داخل المحل فتاة لها شكل شرق آسيا التفتت الىّ وتكلمت بعنف ولم أفهم !!

حضر شاب وسألنى قلت له أريد بسكوتا فقط كانت عينى على الأسماء والأسعار .. وقلت له أولا أريد أن أعرف ماذا تقول هذه الفتاة ؟

قال : خادمة فلبينية ظنت أنك تراقبها خوفا من سرقة شىء ما .. فاحتجت ، وأشار بيده ناحية رفوف عديدة وقال البسكويت .

أخذت يا ابراهيم واحدا منها وأعطيت عامل الآلة الحاسبة جنيها فوضعه فى فم الماكينة وأقفل الصندوق .

قلت له : الحساب .

قال : مضبوط .

قلت : خادمة من بلاد الجنس الأصفر ، ونحن نذهب لنخدم فى كل بلاد الله .

وضَعتُ البسكويت فى حقيبتى وقلت للأولاد وأكملت العمل .

وفى تمام مرور سيارة بيجو ملاكى بيضاء كانت آخر شجرة تهوى معلنة انتهاء أشجار الجهنمية ونظافة السور .

★★★

السيارات تمرق الى التحرير ، عمال النادى يدخلون على مهل ، المعدية ذاهبة بالرسائل من الشط الى الشط ، اغتسلت واختلط عرقى بماء النيل فابتسم .. أبدلت ملابسى فاغرورقت عيناه بالدموع ، أقفلت الباب وقلت عندما يحضرون يجدون كل شىء جاهزا وسرت باتجاه التحرير ، فبكى النهر وربما توقف قليلا .

★★★

قال : نحن عرضة للاعتداء .. ليس هذا ما طلبناه منك .

قلت : لابد للسور أن يقام على حائط كاذب يحمى أرض الشارع من الانهيار على نباتات المشتل ثم يظهر السور من مستوى الشارع .. أما الأشجار المقطوعة فستكوم لأن لها استعمالا آخر .

قال : نبدأ بالسور أولا .

قلت له : معلق فى الهواء؟! .

★★★

فى الساعة التاسعة مساء كانت أشجار الجهنمية كومة واحدة فى نهاية المشتل وأفسحنا المكان للانشاءات .

★★★

قال : أعطيتك خمسين جنيها .. أين البذور ، ركبنا طلمبة الرفع .

قلت : البذور والعُقَل متفق عليها وتنقصنا النقود .

أين السور والانشاءات ومكان العرض والصوب ؟

أين الفلاح ؟

الخمسون جنيها نود أن نتحاسب عليها هناك انتقالات فى طنطا والزقازيق وشبين الكوم والرأس السوداء ورأس التين ومديرية التحرير والصالحية والمنصورة وحدائق الهيئة بالاسماعيلية ، والقناطر الخيرية .

ثم أجر قطع السور ، ثم حساب الشهر .

أعطانى ورقة الى جمال وقال : اذهب اليه .

★★★

عند ترام باب اللوق قال جمال : غير معقول .. فلوس .. فلوس ، ألف جنيه مصاريف المشتل فى شهر .

قلت له : ما وصلنى خمسون جنيها .. ومازلت فى حاجة الى ثمن العُقَل والبذور والانتقالات وحساب قطع السور .. وحساب الشهر .

والسور ومكان العرض والصوبة والفلاح لا أثر لكل هذا .

كيف أبدأ العمل معكم .

قال : يوم الأربعاء .

قلت : لا أريد تأخير .

قال : لست بنكا لأعطيك وقتما تريد .

دخل بهجت ومال على أذن جمال فأعطاه ألف جنيه فأعطانى مائة جنيه ووضع الباقى فى جيبه .

★★★

كان عبد الحميد يظهر بين الحين والحين .

اختفى بهجت نهائيا .

حضر عبد الله الفلاح .

زرعت العقل والبذور ، لم يقم السور ولا العرض ولا الصوبة .

ولم أقبض أجر الشهر وصرنا فى نصف الشهر الثانى .

قال عبد الحميد : جمال هو صاحب المسألة .

اتصلت ببهجت بالتليفون فقال جمال مفلس ، غدا أصرف شيكا خلال أيام ، والله يا أخى كلنا مفلسون .

★★★

فى العاشرة وعند عودتى من عند عبد المحسن الذى كنت أبيت عنده بعد ضياع حجرة أم عصام ، ولم أجده ، وأمام (النبيلة) كانت عربة جمال وعربة بهجت وعربة عبد الحميد فى الصف الداخلى للانتظار .

قلت : والله كلنا مفلسون .

★★★

جلست أمام الهيلتون وشربت الشاى ودخنت السجائر وأكلت الترمس ، سرت حتى نهاية القصر العينى ، قلت أعود أشرب شايا وأتكلم مع القهوجى حتى الصباح ، كان قد رحل ، سبعة آلاف خطوة ذهابا وايابا .. استرح يا قلب .

سرت حتى كوبرى أبو العلا وكانت الكافتيريا مقفلة وأعلاها مقر لحزب التجمع .. عدت أمام الهيلتون ثلاثة آلاف وست وخمسون خطوة ذهابا وايابا .. لا النهار يأتى .. والليل يروح الى بلاده .. ولا أنا مستريح ..

★★★

صمتت موسيقى الهيلتون وعاد الساهرون من زبائنه اليه ، وخرج الساهرون منه .. وسكنت حركة العربات فى الشارع ، وسرى الخدر الى

جسمى من المقعد الأسمنتى علي النيل فى مواجهة الهيلتون ، وكنت أتفرج على الأعلام المرفوعة والسيارات الكثيرة التى فى موقف الفندق ، وتأملت الضوء الخافت داخل الفندق من خلال الزجاج المقفل فأحسست بالبرد ، فأدرت ظهرى للفندق ، وكانت مياه النهر تسير ببطء وتعطى وجهها للجهة الأخرى .

★★★

بدأت عربات الفول تسرح ، وآذان الفجر يصدح ، وعربات العيش والخضار تمرق فى الشوارع الجانبية ، والندى يقصم وسط الكلاب التى تبيت فى الطل ، عند منحنى شارع معروف من جهة الكوبرى كان عمى فرج ، أعطيته الصباح الجميل فأعطانى طبق الفول والبصل والخبز المقمر .

قال : متى تنام ؟!

قلت : عندما يصبح لى عشا لأنام فيه .

قال وهو يكمل تجهيز العربة ، فى بعض الليالى أصحو من النوم فى عز الليل ، على أصوات أقدام فى الشارع فأقول فى نفسى والله لو فتحت الشباك سأراك تسير فى الشارع ثم أقول لنفسى ما الذى سيأتى به الى بولاق .

قلت له : الفرج يا عم فرج .

كان قد طلب شايا فشربنا ، وبدأت الزبائن تهل عليه ، زبائن الصباح الباكر .

قال لى : انتظرنى على المقهى المجاور .

فى العاشرة جاء عمى فرج وأعطى صاحب المقهى حسابه ثم أعطانى ثلاثة جنيهات وقال : يبقى لك عندى خمسون جنيها وستون قرشا .. الحمد لله .

قلت له : خمسون جنيها فقط يا عم فرج عيب !!

قال : يا أستاذ السلف سلف والواجب واجب .

★★★

مضى الشهر الرابع .

لا السور أقيم ، ولا أصحاب العقل والبذور أخذوا باقى ما لهم ، ولا أنا ولا عبد الله أخذنا حسابنا .

قال : هذا رابع يوم لا تذهب الى المشتل ، وعبد الحميد وجمال فى غاية الغضب .

قلت لبهجت : تساوينا ولو فى الغضب ، أنت منذ ثلاثة شهور لم تظهر ولى عندكم حسابات نسويها يا ناس .

قال باندهاش لدرجة أننى صدقته :

– أنت شريكنا يا رجل عيب ، شريك بنفس النسبة فى بنى سويف وما تأخذه ملاليم مصاريف .

قلت له : وعبد الله وأصحاب البذرة والعقل شركاء أيضا فى بنى سويف يا ناس .. أنا أجير عندكم .. مرابع .. ولى عندكم أجر .. والأمر اليك .. اما الدفع .. أو أراكم بخير .

قال : لا تفسد ليلتنا .. قم .. انهم فى انتظارنا .. هذه ليلة من أجلك .. هذه ليلتك .

قلت فى نفسى أخاف من « هذه ليلتى » وأعرف أن آخرها فراق .

فى شقته كانت ليلة كلهم كلهم وأصدقاؤهم ومشروبات ومأكولات وسهرنا حتى الصباح .. وكانت أذناى تسمع « نجمة دهشور » ، « الاسكان

الاقتصادى » ، « طلمبات الرفع » وأسماء وكلاء وزارة ومديرين عموم ، عموما لم أفهم الا أننى لا أستطيع أن أكون هنا .

أخذنى ونحن نشرب قهوة الصباح فى الشرفة وأعطانى ثلاثمائة جنيه قلت له : ما هذا ؟ أين أذهب بهم ؟!

قال : كن كريما معنا .. أنت ترى أننا كرماء .

★★★

فى المقهى قال لى إنه يريدنى غدا فى شىء مهم .

فى فندق هيلتون رمسيس قال الدكتور عواد : تفضل .

قال له : أحمد .

لم يرد ولم يصد فلم أعطه اهتمامى وأخذت أنظر الى ما حولى .. كانت نباتات الزينة لوحات وأسماؤها اللاتينية عليها وألوانها تزخر بالحياة .

ونزلنا الى غربة لاندروفر نصف مدرعة وذهبنا الى أبى رواش وكان الكلام متصلا بين بهجت والدكتور عواد وأحد المصريين ، وكنت صامتا أسمع وكانت لقاءات الدكتور عواد إما بيع صوب بلاستيك ومعدات زراعة وبذور أهمها الكنتالوب الذى كان بالعريش وياميت ،

وأما المشاركة على أرض لزراعة نباتات الزينة أو ادارة مشاريع .. كان جاهزا لا يضيع الوقت .

وفى طريق عودتنا مررنا على المشتل وحكى له بهجت الحكاية وميعاد الزراعة فلم يصدق وجاءنى مبهورا ولكنى كنت أتحدث الى النهر .

★★★

الكومبيوتر والطابعة ، والبوستر بأصناف الأزهار مختلفة الألوان وكانت زهرة الهيلوكريزا والاكروكلينم والقرنفل والأيشولوزيا تتصدر اللوحة . طابور سكرتارية ، ويخرج من خلف الأبواب رجال وفتيات ونساء والكل يشترك فى الحديث الموجه الىّ والذى يشعرك أنك أمام لجنة امتحان ، وأخذت أفرق بين العرق الوسطى ومكانه فى الورقة ولون الزهرة وتأثر اللون بالرطوبة والحرارة ، وحجم الزهرة وميعاد الزراعة ، ومدة قطف الأزهار وطريقتها سواء تحت الماء أو فى الصباح الباكر وكان عواد يراقب الموقف كالصقر ويتدخل فى الحديث كالثعلب .

وبهجت وجهه ينم عن كارثة تلوح فى الأفق .

وعند خروجنا من المكتب أخذ أحدهم يتحدث مع بهجت بينما دفعنى عواد الى المصعد وهبطنا الى أسفل وقال لى أريدك غدا فى العاشرة سأترك لك أمرا بالاستقبال .. أرجو ألا يعرف بهجت بهذا الأمر .

★★★

فى جناحه الخاص ، أمامى وبجانبى سكرتيرة وسكرتيرة خمنت ذلك ولكن يا أخى كنت محاصرا بين الفتنة والمساومة .

وطلب منى عواد أن أعمل معهم ، أسافر الى الأردن أو باريس لأعمل فى مزارعهم رغم أن معلوماتى قديمة وضعيفة .

ونصحته بأن يختار أستاذا متخصصا فى علم الزينة ، فطلب ملفا وأطلعنى على طلبات للعمل عندهم من جميع من أعرف ومن أسمع عنهم ومن أقرأ لهم .

قال : الاقامة ومصاريف السفر على حسابنا والأجر ألف دولار .

قلت له : لا أفكر فى السفر .

ظل يتحدث عن مزارعهم فى كينيا ونيروبى والكونغو والهند وتركنى وخرج وجاءت واحدة من وراء باب مقفل وقالت أنها ستكون مكلفة بى فى سفرى الى أن أعود فى اجازاتى وكانت قد جلست بجوارى بينما الأخرى أمامى تضع ساقا أسفل ساق تاركة للثوب حرية الانزلاق ، ثم أبدلت الوضع ، ثم وضعت كل ساق بعيدا عن الأخرى تاركة هوة من الظلام كسرداب للتخيل .

قلت : تأخر الدكتور عواد .

فقامت التى أمامى بينما وقفت التى بجوارى ثم جلست بجوارى واضعة مؤخرتها عند نهاية المقعد ومنحنية الى الأمام ثم اعتدلت وإذا بالثوب الملعون قد كشف عن أسطوانتين عاجيتين قد برزتا كاقمار المشترى ووضعت كفها فوق كتفى البعيد ساحبة نارا على كتفى قائلة : كلنا نحبك وعواد وستكون مستريحا وافق على أى شىء وأنا كفيلة بأن أجعلك ترضى .

جاء عواد فقمنا وقلت له : أفكر وأراك غدا .

ولم يأت الغد .

★★★

قال بهجت : كم مرة اعتقلت ؟

قلت له : لا فرق بين الخارج والداخل .

★★★

قال جمال : كل الحسابات مع عبد الحميد .

وقال عبد الحميد : بهجت تركنا وصفينا حسابه من الشركة ونحن فى أزمة .

★★★

لا السور ولا مكان العرض ولا الصوبة ولا باقى فلوس عبد الله ولا باقى أجرى وأتممنا ثمانية شهور .

فقال عبد الحميد : أجِّلْ كل مستلزمات الانتاج وتعمل معنا براتبك كما هو ثم نعطيك نسبة على التوزيع .

قلت : بهجت مكلف بالتوزيع . وشروطكم أن أعمل فى الانتاج .

قال جمال : بعد شهرين نعطيك باقى حسابك ثم نقوم بعمل تنظيم للعمل ويأخذ كل منا عملا يقوم به .

مثلا تستمر كما أنت فى الانتاج ، وما تبيعه تسدد منه عبد الله وراتبك .

قلت : واذا لم يحدث بيع .

قال : لا ستوزع أدوارا أى سنقسم الجمهورية الى أقسام وكل واحد منا يوزع فى جزء .

★★★

عندما سارت العربات بالشتلات عدّ عبد الحميد النقود وركب مع جمال ولم يعطنى حسابى .

ذهبت اليهم فقالوا اصبر هذه أول عملية لك . بعد عملية جمال وعملية عبد الحميد نتحاسب .

★★★

كنت قد أعطيت أم عصام ايجار الشهر الذى لم أسكنه ومضى بعد ذلك سبعة شهور وثمانية وعشرون يوما .

★★★

مضت تسعة شهور .. لا أجر .. لا نسبة توزيع .. لا سكن بالقاهرة وأدام الله كورنيش النيل وعمى فرج .

قلت فى نفسى : أنت تعرف أن هذا المشروع لن يتم وتحملت وتغابيت حتى لم يعد هناك مجال للغباء .

– يعنى خرجت من المولد بلا حمص .

– لا يا ابراهيم خرجت بلا حلاوة ولا حمص من المشتل لكن مازلت فى المولد حتى اليوم .

★★★

ولما رأى ذلك ملاك الرب مس جسدها ، فقامت وقد شفيت تماما من كل جراحاتها ، فعجب الأمير ووضعها فى الزيت المغلى ، ومس جسدها ملاك الرب فخرجت وشفيت تماما من كل جراحاتها وقالت آمنت باله واحد خالق السموات والأرض ، فأمره الملك أن يقطع رقبتها ورقبة أربعين عذراء من صويحباتها كن معها .. وبنى على المكان كنيسة ومازالت تزار للتبرك وتجدد كلما أصابها القدم .

قلت لها : مادام الأمر كذلك سنترك فى هذه الكنيسة رسالتين ، ورسالة هناك أسفل قبته التى يعلوها الهلال الذى يخترمه مركب يتجه ناحية الشرق .. فعنده نلقى الرسائل ليعقد المحكمة ويبت فى الأمر .

(آه أيها الاله العادل أوزوريس يا ملك العالم السفلى ، اعقد محكمتك ، أرنى الطريق ، اعطنى حقى ممن ظلمنى ، وخلص قلبى من ظلم الناس) .

– هل أنت مريض يا ابراهيم .. أنت تهذى .

– لا لكن هل هذه الرسائل هى غرفة الانعاش لحبنا ، رسائل من أحياء لأموات وعلى أيدى من نرسلها وكيف يقرؤونها ؟!

أنا غير معترض ، فأمى كانت تأتى هى واخوتى وعماتى وأعمامى لزيارة السيدة زينب وتحتل لنا مكانا بجوار المقام ونبيت فيه بعد أن نغطيه ونقفله ونقسمه بالبطاطين ونفرش مكانا للنساء ومكانا للرجال .

وتخرج أمي من مقام السيدة زينب الى رئيس المحكمة .

وكنت أنا الصغير أتبعها وأمسك جلبابها ، وما أن تدخل الضريح ، وأقف أنا هناك خارج المسجد بعيدا إلا وأتأمل القبة بعلوها كأنما بطن رجل نائم على ظهره فبرز كرشه ، يعلو هذه القبة جامعا قبضته ليلم أطرافها فى وسطها ويتجه الى السماء حاملا هلالا تكاد تتلامس أطرافه الدقيقة يرتكز بكليته على الحامل ، ويخترم الهلال مركب يتجه الى الشمس .

قالت أمي : تأتى المركب بروحه لتزور أهل الدنيا وتشرف عليها وترد على الرسائل وتعود فى المركب عند الغروب ليرأس المحكمة .

قال عمي : يتجلى نوره فى كل وقت ، لكن النساء ناقصات عقل ودين .

وكنت من مكانى أرى أنا الصغير القبة فأحس بأننى صغير صغير وأخاف وأترقب ظهور أمى .. وما أن تظهر حتى أجرى اليها قاطعا الشارع ممسكا بذيل جلبابها وما أن نصل الى الخيام عند مقام السيدة حتى أحس أننى عدت من غربتى فأجرى وأنادى أختى التى تصغرنى ونلف شارع السد ونمرق فى شارع خلف قسم شرطة السيدة وأشب على أطراف أصابعى فلا أرى شيئا فأتسلق الشباك وأبص على المأمور فيواجهنى شارب كثيف وكبير من خلف الشباك فأترك حديد الشباك وأسقط على الأرض ، فينهرنى ، فأخرج له لسانى ، وأرفع جلبابى من الأمام وأتراقص وأجرى فى الشارع فيصيب أبى وأمى سيلا من الشتائم . وكانت أمى تكتب - وهى التى حفظت القرآن - الرسائل للإمام الشافعى رئيس المحكمة بخطها وتقول له أنها زعلانة وتريد منه أن يعلى نجمها ويهزم حسادها .

وكانت تعود لتنشغل فى أعمال أخرى وكانت تهملنا فى طعام الصباح والظهيرة وكانت تسأل عنا فى المساء ، وكنا بعد صلاة المغرب نأكل على

موائد الصدقة ، وكنت أنسل أنا وأختى وندخل بيوت الطهو أو الخيام لنشرب طبق شوربة أو مغرفة أرز أو طبق به أرز وكثيرا من أصناف الخضار - ما تبقى بعد أكل الطهاة - وكانت أمى لا تهمل أخى الصغير فترعاه وتجلسه ما بين قصبة الساق والمشط بعد أن تكون قد كشفت مؤخرته ، وذلك على الأسفلت أو بجوار المقام وكأنها جاءت لتنتقم من المدينة .

- جميلة هى الذكريات يا ابراهيم .. لكن متى نرسل الرسائل .

- أود أن نرسل رسائل الى الإلهة حتحور والى اخناتون وهيبس والشاب الصامت .

- الشاب الصامت ؟ من ؟

- شيخ وولى كان أخرسا ومات وهو شاب وقد أجرى الله على يديه معجزات كثيرة .

- وكيف كانت معجزاته تظهر وهو أخرس .

- مثل بتهوفن .

صمتت دينًا فصمتُ .. وكان الصمت اتصال آفاق البوح وسراديب الجحيم .

مصيرنا الاحتراق .. والاقتران إنذار بكبر ثقب الأوزون ونذيره المذنب هالى .عاج عجن بماء الورد وبالزعتر والحناء ، وتعطر من خشب الصندل والراوند وضج وكلل رأس العشق بمسبوكات من ذهب خالص وغدير من فن خالص : ووجع صب ، أصاب هنالك شلالات القلب بفيض الدهشة . ووهج الجسد الفائر لا يثبت ذاك الجسد الرجراج قليلا تحت الثوب ويجمد تحت اليد وتنهار معان من وجع واسترحام وحنين وأنين واستمتاع حلو تحت الجسم الفلاحى الخشن المزروع بحلفاء الأرض وذكر النخل الفحل وتسكن فى ذكر النخل عقارب كل العالم .

قالت فى شقتها بالمنيل : أنت تحب جميلة .

كنت مستلقيا على الفراش وفوقى شرشف أبيض ، تمرغت كحمار تعب .

- جميلة !! جميلة صديقتى وأنت رفيقتى .

- أتزوج قريبا .. وأسافر الى ايطاليا .

انتفضت واقفا فبان عريى .. قلت :

- وتسافرين ؟!

قالت وهى فى طريقها الى الحمام :

- لست أدرى سنبحث الأمر غدا .

آه يا بنت الحرام أنت مرتع الجسد والجميلة مرتع القلب .

ومن نحسى الأزلى ضاعت جنة القلب وزريبة الجسد فى طريقها للضياع ..

كنت كمن تلقى ضربة برأس فأس على يافوخه .

خرجت أبحث عن احدى الحسنيين ، كانت جنة القلب غابت ، وزريبة الجسد ونعمته تخبرنى بالمفاوضات .

ورأيته معها يسيران فى طريق العشاق أمام كازينو (كروب) عند جامع صلاح الدين وبائع الفل يهديها عقوده وأنا أتأمل (كروب) يضوى بالنيون الأحمر والأزرق قلت كرب وبلاء .

عرفته وتابعته من مقهاه حتى بار قبرص قلت فى نفسى :

- حاصرتك فى عرض الخمر .

جاذبت الجمع أطراف الحديث واصطنعت صداقات وناديت على سلامة فجاء حماد ورحب وفرش المنضدة وأحضر منفضة للسجائر وأحضر المطلوب وفتح وصب وكنت قد اخترت مجلسي بجوار مجلس الكرش ذلك الأصلع الذى سيأخذ ربيع الجسد الى ايطاليا ، ايطاليا التى سرقت كل المسلات المصرية الجميلة فلتسرق اذن آخر المسلات .

قلت فى نفسى : سأحكى للناس بالرمز حكايتى أنا ودينا وشقة الهلباوى وليذهب العالم الى الجحيم هذه أول قنبلة ذرية سألقيها .

وبعد ما استقر النصف لتر بحروفه الأربعة فى الدم وزدناه بربع لم نفرغ منه بعد بحت يا أحمد وقلت :

أحبها يا ناس وهى تحبنى .. أقول يا ناس وأعترف فى شقة الهلباوى وقفت العارية الجميلة تتحدانى وكنت قد دخلتها بليل ، لكنى خمنت من الأبواب أنها ثلاث حجرات وصالة وعندما دخلتُ دورة المياه وجدتها تحتاج الى اصلاح وتسليك والحمام بارد ، قلت يا خال سأشعل النار فى البلاط ..

★★★

تسلل بيانو رحمانوف ، فتلاشى الوجود ، وصرنا واحدا مكتملا يتقاسم ويتجاذب وينفصل ويتصل فى آن فيلتبس علينا الأمر ، فندخل كل الطرق فيتشكل الجسد فيتشكل بعكس تشكله الجسد الآخر فيكتملا فنحيا .

كان الإله العاجى بكرشه العارى وردائه الذى على الأكتاف وصلعته اللامعة ينظر الينا من فوق رف خشبى وكان يبتسم ، أقبلها عند هجعتها وانتهائها فترصد العيون ما فى عمق العيون شهادة بالامتنان والحب والهجر فنبتدىء فأقول صامتا .

مال علىّ أحد الأصدقاء وقال : كفى .

وقفت وقلت له :

– يا أخى قل للدنيا كفى مالها بى .. أقول لها غرى غيرى لكنها تضرب فوق اليافوخ وعلى القفا ، قل لها كفى .

أمسكنى الكرش الأصلع وأجلسنى وقال :

– صديقتك .. كلاكما على دين غير الآخر .

– جمعنا دين الحب .

– أنا أعرفك .. ما تقوله كان فى زمن مضى ، كل انسان له ماضٍ ، المهم الحاضر والمستقبل ، أقول لك كانت طفلة ، الصداقة شىء والحب شىء آخر .. قلت فى نفسى :

– ماذا أفعل مع هذا التيس الديوث .

قلت لابد من عمل حاسم خرجت من باب البار وقلت من فرجة الباب :

– حيوان وابن كلب .

كنت أظنها ستعود لى واذا به يضربنى على القفا .

بعد ثلاثة أيام ذهبت الى المنزل ، قالت الشغالة :

– سافرت أمس الى ايطاليا مع الأستاذ حنا .

قلت : حنا دخل الجنة .

فضحكت الشغالة وسكان الشقة المقابلة لشقتهم .

ذهبتُ الى شقة الهلباوى وحاولت ادخال المفتاح فى الثقب واذا بصوت خشن يرد :

– من ؟

– أنا ابراهيم .

فتح هو الباب وقال لى :

- استأجرت الشقة مفروشة من ثلاثة أيام .. المفتاح عن اذنك .

كان قويا وعريضا .

قلت له : هل يمكن استخدام دورة المياه .

أقفل الباب فى وجهى وقال :

- لا يا سافل .

- يا راجل يا جاموسة ، يلعن أبوك .

وهرولت على السلم فلم تلحقنى فردة الشبشب ولحقتنى شتائمه .. تذكرت قول جدى :

- ذل قوم لا سفيه لهم .

تذكرتكم جميعا وأنتم تعشقون الاتزان وتتعاملون بلا أخطاء أو نزوات مع شخصكم العام أما مع شخصكم الخاص صاحب النزوات فأنا أقرب الناس الى قلوبكم ، ولا تكتمل البهجة إلا بى ، وكل منكم يتمنى أن أوجه له الحديث ، أما فى شخصكم العام فتتحاشون سيرتى ورائحتى .

كم جرحتم القلب بأفعالكم .

أنا واحد .. يا ناس .. أنا العام والخاص .. لن أكون اثنين لأننى لا أستطيع .

وكنت قد وصلت فى سيرى حتى كورنيش النيل ولم أجد من مرارة القلب ما يقال فقد جفت الأقلام وطويت الصحف يا عم أحمد .

★★★

- ٩ -

- اسمع يا ابراهيم لما دخلنا نحن الستة حجرة الاستقبال ، بعد كل اجراءات الأمن ، فى انتظار الرجل المهيب ، لم نكن ندرى يوم رشحنا أنفسنا وسط المدرجات والطلبة أن هذا سيحدث !! لم يكن حلما مخيفا فى ضميرنا لم يَرِدْ على خاطرنا .

أقصى ما فى طاقة الأمنيات أن نمسك زمام الاتحاد ونعيد تنظيمه ليصبح لكل الطلاب فهذه أول مرة ينجح فيها أبناء الفلاحين بهذه الجرأة والكثافة . لم تكن طاقتنا تتحمل كل هذا الحلم ، ربما وكل هذا الفرح الحزين ، كان فرحا فى اطار من الحزن والغموض والخوف .

جاءت قاصمة الظهر ، ست ساعات هى كل شىء وارتاحوا فى الساعة السابعة ، رغم تذاكر السفر التى حجزت من كل البلاد العربية الى بلاد الأنبياء والمسجد الأقصى ، ورغم عدد الطائرات الوهمى الذى سقط ، وكنت أتخيل أننى لن أستطيع السير فى الشوارع من جثث الطائرات ، لكن لا طائرة سقطت ولا طائرة لنا طارت ، لم يسقط إلا قلبى عندما شاهدت فلول العادين الحفاة العراة ، يمدون أيديهم جوعى لقطع الجبن والأرغفة التى ينثرها عليهم الناس رحمة وصدقة .

وقلت فى نفسى هل الطريق الى هناك ينتهى فى القاهرة ؟!

أم أنهم عادوا الى أمهاتهم لتطمئن .. ويعودون ؟!

إم انتهى الأمر بهذه السرعة وعادت البلاد الى أهليها ؟!

أم أن هناك ملعوبا فى المسألة ؟

قلت هى هى .. عندها حل كل سؤال .. أقرأه فى سفرها .

★★★

قال عبد الحميد : من هو الشهيد ؟؟ ومن هو القتيل ؟!

هل من ذهبوا فى مظاهرة بملابسهم المدنية الى تمادة والمليز وبالوظة ، كانوا بملء إرادتهم ؟!

هل خرجوا دفاعا عن الدين والوطن والعرض والأرض والمال ؟

أم ذهبوا لأن الأوامر جاءت هكذا ؟

قلت أخذونا على غرة يا شيخ .

★★★

قال السيد شداد بعد أن برم شاربه : شهران وأعود لن تجوع البهائم قبل أن أعود ، عدل الطاقية وأطلق ضحكته فى الهواء فلم تودعه إلا الدموع .

عاد أولاده بأوراق المدارس مختومة بالنسر والصقر والدمغات وعشر سنين من الذهاب والعودة ولم يَعُدْ هو !!

يومها يا ابراهيم أوقفتْ الدراسة .. وجندنا فى التربية العسكرية والدفاع المدنى .. لم أنم فى الخيام ، كنت أحس أننى فى الصباح سأجد جزءا مقطوعا من الأرض ومكانه هوة واسعة جوفها جحيم .

كنت أحس حين دخلت الى الخيمة أن الأرض تهتز وأن أحدا هناك يشدها الى البعيد ، قلت هم يسرقون الأرض .

قبلها بثلاثة أيام طارت طائرة الى هناك !!

وبعدها بيوم مرت عربة جيب الى هناك !!

قلت ستغير النجوم مواقعها ..

أبقى متيقظا حذرا ..

ويوم تنحى ذلك الرجل المهيب الذى نحن فى انتظاره .

عاد ببحر من الدموع ، وبرز سؤال الحناجر ماذا سنفعل من بعدك ؟!

كأنما فقدنا ولى أمرنا .

قلت يعود لنسوى الحساب .

وقف طائر الحيرة فى منتصف الكون تحت سمت السماء سؤالا - ذنب من؟

وكانت الأحكام مرتخية كحال عسكرية الصحراء تصلح للأحداث .

قال المحكوم عليهم : لا ذنب لنا إلا أن أمرتنا فأطعناك .

ذهبنا اليه لنسأل ذنب من ؟!!

★★★

دخل علينا بفودين أبيضين مرفوع الرأس حول العينين هالات سوداء سلم علينا واحتوانا ، طويلا جدا كان ، أخذ منا الحماس وأعطانا الانبهار .. سأل كل واحد منا عن أحواله ، ناداه باسمه كأنه يعرفه قال لى :

- كيف حال والدك ؟!

- أنت تعرف .

فابتلعتها ولم يكرر السؤال .

ولم نتكلم فيما جئنا من أجله ، لكننى قلت المحاكمات .

فانبرى (الشاطر) يشرح ويفسر ويسأل فكبرت قامتنا ، لكن قامته كانت أكبر .

قال : تعاد المحاكمات ، كل مهمل يأخذ جزاءه لن أعفى نفسى من المسئولية .. سعيد بكم .. وقام فانصرفنا .

– أخذكم فى عشرة بلدى .

هكذا قال حلمى يا ابراهيم قال هذا كلام ربط رأس .

قلت له : رباط الرأس فى سوق البهائم لضرب السعر .

قال حلمى : وهذا يضرب الغضب .

★★★

عدنا الى شارع معروف ، وكنا نتكلم ، الوحيد الذى لم يتكلم هناك أو هنا هو عبد الحميد .

وزعنا أنفسنا على جميع الكليات ليصبح الصباح الثالث مظاهرة احتجاج لاجبار الوعد أن يصبح واقعا .

– فأصبح الوعد وعيدا .

قسمنا العمل ولكن عبد الحميد استأذن ليحضر العشاء ذهب معه حسين وأحمد عزت الموظفان بالمكتب ثم عادا ولم يعد عبد الحميد .

تعشينا وشربنا الشاى وتركنا لعبد الحميد عشاءه ولكنه عندما حضر لم يأكل واستأذن ليبيت عند أمه بالسيدة زينب وبقينا فى المكتب .

ذهب كل واحد منا فى الصباح الباكر لما هو متفق عليه .

بعد عشرة أيام تجمعنا فى القلعة من جميع أرجاء الأرض وكان الكل حضورا إلا عبد الحميد .

★★★

أعلنت الأحكام وتم التصديق عليها وتم تحويلهم الى المستشفيات وظللنا فى الحبس .

قلت : والله هذه قسمة عادلة هذا ذنبنا من أول الأمر .

★★★

جرت فى النهر مياه كثيرة ، وصار عبد الحميد وزيرا وعلق دمنا وساما على صدره وقطع صلته بمن أراد صلته .

★★★

انقلب الزمان الى ضده لكن نجم عبد الحميد كان فى صعود وصار من سدنة الحكم ومازلت أحمل حقيبتى على كتفى أبحث عن وجه الوطن وأدور بها فى بلاد الله لكن هذا الدوران ظل مقلقا للبعض .

بينما سافر البعض وجُنِّد البعض دون دوره فى البحر الأحمر .

وبقى البعض معى يقبض علينا على ذمة كل الاتجاهات من أقصاها الى أقصاها حتى سألت نفسى : من أنا ؟!

★★★

ربما لا تعرف يا ابراهيم أن أول مرة أرى فيها والدى بعد خمسة عشر عاما كانت من وراء سلك الزيارة .

قال : تركت لك نقودا .. المهم أن تكون كما تريد .

تذكرت هذه القطعة الغالية من القلب ، ذلك الرجل الذى أجلسه الناس فى قلوبهم فصار فرحهم وحزنهم ، ثم أجلسوه ليلا بعيدا عن الناس وعنا ولكنه بقى فى القلوب الى اليوم .

تذكرته يوم كان يحكى لنا عن قريتنا ونحن مازلنا أطفالا صغارا ، يومها أخرج من وراء صورة لجدى ، ورقة صفراء وفردها كانت مزدانة بالرسوم والعقود يتوسطها تاج ملكى حوله هلال كبير وثلاثة نجوم خضراء بارزة عن الورق . وقد كتب بخط جميل : (وهب ملكية) .

(نحن ..... ملك مصر ..... الى الملكة .....

نهبك ملك هذه البلاد بمن عليها من العبيد والدواب .....) .

لم أستمع الى باقى الحدود والشروط والجهات وعرفت أن قرانا الثلاث صارت بمحطة القطار والطريق المرشوش بالماء حتى التفتيش تسمى (الفريدية) على إسم الملكة التى وهبت لها بلادنا .

أصبحنا ملكا خالصا لها ولم يعتقنا من الرق إلا ذلك الرجل المهيب الذى أودعنى السجن وأبعد أبى قبلى الى مشارف السودان .

ونهبت مكتبتنا ولم يبق لنا بعد النهب إلا المنتخب فى آداب العرب ، تذكرة داوود ، أبو معشر الفلكى ، سلامة موسى ، معالم على الطريق ، حمزة البهلوان ، سيف بن ذى يزن ، الشوقيات ، حى بن يقظان ، وأعداد من مجلة المسلمون والشهاب ، والنسفى ، والطبرى ، وابن هشام ، وطه حسين ، ومندور، والرافعى ، والرسالة ، وعبد الرحمن الساعاتى ، ويحيى حقى ، ومشاهد من يوم القيامة ، والمأثورات وتوفيق الحكيم وفجر الضمير ، ومصر القديمة لسليم حسن .

وكلما قلبت هذه الأوراق تذكرت ذلك الرجل - أبى - الذى ضنت به الدنيا علىّ وعلى الناس . فعاد من النفى عام ١٩٦٩ لأن مياه بحيرة ناصر

كانت ستغرق (أبى هور) التى نفى فيها على مشارف السودان .

عاد ليجدنى فى الحبس .. ثم عينت فى الفيوم .. ومات الرجل العظيم

– أبى – بعد عامين من عودته لنا .. وأشهر من معرفتى به .

– وهل تعرف كل هذا ؟

– من ؟

– زوجتك .

– طبعا .. فالعائلتان أصدقاء منذ أمد طويل .

– وهل هذه مكافأتها يا أستاذ ؟

– يا ابراهيم أنت تخلط كل الأمور بكل الأمور .. افهم يا أخى ما حدث بيننا للصالح العام .

– هل هى غيرة ؟!

– يعنى ...

– أنا أعرف أنه ليس لك أى علاقات خاصة .

– وأنا كذلك أعرف عن نفسى .. لكى هى تعتقد .

– تشرب شايا .. أم قهوة .

★★★

- ليست لقمة العيش هى كل شىء فى الدنيا يا أستاذ .

حاجات بسيطة لا تمر من الحلق ، يجوز أننا نترك حاجات وحاجات كبيرة تمر ونفترض حسن الضمير والنية ، ونقول أيام يا ناس زرع فى وسطها أطفال صغار وزوجة ، ثقل الحمل على الجر ونحن لا نرى آخر حدود العمر - تعرف يا أستاذ لو أن الواحد عرف آخر حدود عمره لكان نام فى بيته ومات من الرعب ، والجنون لكن حكمة ربك أنه أخفاها عنا - وتكون فى بلاد الغربة - لا مؤاخذة فى الكلام - كالكلب الأجرب ، يلسعك البرد أينما ذهبت ، فرحتك مكسورة فلا تستطيع أن تخرجها إذا جاءت .

حتى فرحتك بيوم عودتك تنكسر فى قلبك خوفا من رجال المطارات ، سافرنا يا أستاذ من بلادنا الى بلاد .

وسافرنا من كل البلاد الى كل البلاد .

وتعاملنا مع الأسود والأحمر والأصفر والأبيض والذى بلا لون - المائع -

وعرفنا النصاب والخاين وابن الحرام ، والرجل والشهم وابن الحلال .

وعرفنا الناس ولم يعطونا قدرنا ، وعملنا عندهم أكثر مما عملنا فى بلادنا ، وتعلمنا كلامهم وتعاملنا بالليرة والدينار والدولار والريال والجنيه ،

وحزمنا أمرنا وتوكلنا على الله وربطنا البطن ، وتركنا الزوجة والأولاد أمانة فى عنق من لا تضيع عنده أمانة .

بعضنا عرف طريق الخبص فاتصل بالسياسة ، وبعضنا عرف طريق النساء فاتصل بالمال الذى يروح كما يأتى مثل هواء العفريتة .

حقيقة يا أستاذ شربنا الكولونيا وخزنا القات وشربنا العرق والبيرة والخمر حتى تطاولت أعناق الزجاجات علينا فأخذناها باللين وأبعدنا الشجار وانهزمنا لها وهى تعرف أننا مهزومون بارادتنا ، وأصبحنا من أصحاب العراقة فى هذا المجال أضيف إليه ابداعنا الخاص والخالص في الحشيش ولم نقرب ما هو حق الغير لم نمد اليد الى مال أحد ولم نمد العين الى نساء أحد أو حتى شيء من زرعه ، فعلنا يا أستاذ ما قلت لك عليه ولكن رحمة ربك أكبر وواسعة وهو الغفور الرحيم .

وذهبنا الى أعمال وأعمال وعدنا الى بلادنا نلبس الملابس الغالية ونتحدث عن رحلاتنا الى البصرة وبغداد والرياض وتبوك وصنعاء وطرابلس ولبنان والمنامة ... وأم القويين وكأننا كنا نشتغل سفراء هناك .

بعضنا لا يعود .

وبعضنا لا يعود ولا نعرف لماذا ؟!

وبعضنا نتركه فى بلد فنلقاه بعد سنين فى بلد آخر .

ونعود لنبنى البيوت ونسهر الليالى الجميلة مع الأهل ونشترى الأرض ، ونعوض الزوجة بما يعوض ، ونعوض الأولاد ، ونأخذ الحنان ونعطيه ، وتصبح السكة الحديد آخر حدود دنيانا .

وبعضنا يعود فيسهر الليالى الحمراء والصفراء ويشترى من الطائرة الويسكى بالدولار والسجائر الأجنبية من السوق الحرة ، ويشرب البيرة ويدخن

الحشيش وربما تزوج على زوجته ، وبعد أسابيع يبيع المسجل والڤيديو ويقل أصحابه وبعد أيام يبيع التليفزيون والساعة وينفض عنه أصحابه وبعد دقائق يبصم على الشيكات والوصولات ويسافر تاركا ما وراءه على الحميد المجيد .

كأنما السنين التى ضاعت فى الهوان لم تعطه إلا أن صدعت رأسه وعطرت حجرته وأوهمته أن من ينام معها من بنات الاعلانات ، فيقلد ما رأى فى الڤيديو وتصبح حنفية الماء والمصرف مكانا لنقل أخباره الخاصة .

والله يا أستاذ المصرى كبحر النيل ، أينما يَحِلْ يُخَضِّرْ ويعمِّر ، فَكِهْ ، روحه حلوة وترفرف بالحنان ، ولكن عيبه أن ضميره فى العمل خارج بلاده ، وبلاده فى العمل خارج ضميره مصيبة سوداء يا أستاذ بعيد عنك .. لكن ربما كان له حق .

قلت له : يا أبا الشوارب كبر الأولاد ، وشاب رأسك ، كفى سفرا .

– حجزونى فى المطار يا أستاذ ، أخذوا البسبورت وقالوا اشتباه ، أخذنى أمين الشرطة وأجلسنى على دكة بلاط ، وكنت مشغولا على حاجياتى .. وقال المقدم أحمد عبد السلام يصلى الظهر وسيأتى حالا .. فلا رأيت أحمد ولا كان سلاما وعند المغرب كانت مؤخرتى قد سرى فيها الخدر من الرطوبة وسجائرى انتهت ، ولا أدرى شيئا عن حقائبى ، وفكرى مشغول ، قلت لهم العذر ، كثيرة هى الخلق .

مر أمين شرطة آخر – ولم أر الأول – فشكوت له حالى وقلت له :

– من الحادية عشرة صباحا حتى الآن والصلاة لا تنتهى والله لو صلاة القيام لانتهت .

أهاننى يا أستاذ ، وسب أمى ، وقال نحن نحمى البلد من أمثالكم ، وعندما قلت له أنها بلدى دفعنى فأجلسنى وقال : بلدك (يا شرموط) .. ثم

فعلها بأنفه وفمه ، فضاع معها آخر أمل فى الاستقرار ، اهتز شاربى وارتخى فارتخت روحى قلت آخذ الأولاد معى ، فالبلد التى تحب عليها وتعشق هى بلدك ، وإذا أهنت بهـا فـخـذ حـبك وهاجـر بـه حـتى لا يـأخـذونه منك ويجرحرونه أمامك .

قلت له : مسقط رأسك – ذكرياتك – جيرانك – نخيل البلدة – أهلك ..

قال : لو ولــدتنى أمى وهربت وربتنى كلبـة ، من أمى فيهمـا التى ولدت ؟! أم التى ربت ؟!

– والله يا أستاذ مسافر وقلبى حزين .

حبك لأولادك يا أستاذ ليس فى المنام فقط لكن فى وقوفهم معك فى الأيام السوداء ، نورت عندما تدخل الى الدار ، ألف سلامة عند المرض ، مع السلامة عند السفر ، صيانة عرضك ومالك وبيتك فى حضورك وغيابك ، غسل ملابسك بعناية ، تطبيق الجلباب ووضعه تحت المرتبة حتى يصبح مكويا ، لا تطلب منك شىء فى الأيام الصعبة ، ولا تسرف إذا الله سهلها لنا باختصار تحس ان قلبها عليك ، حتى فى مزاجك فى الشاى ، بعدها يا أستاذ أخذونى فى عربة الى لاظوغلى – يا أستاذ هل قَلّتْ الأسماء ؟!

من هو لاظوغلى ألا يوجد اسم أسهل من هذا ؟!

أنت تعرف طبعا عمك لاظوغلى وما يحدث هناك .

وعدت بعد ثلاثة أيام الى المطار وبقيت بجواره أبحث عن حاجياتى ثلاثة أيام أخرى ولم أسترح إلا فى اليوم السابع عندما عدت الى بيتى وأنا فى خوف ولم أطمئن بكلمـة آسف التى قالهـا لى لاظوغلى وأخرجنى وقال روح !!

قلت كل ما حدث ثم آسف حسبى الله ونعم الوكيل يا لاظوغلى .

قلت له : ومتى تعود يا أبا الشوارب .

قال : عندما يقف الصقر على شاربى المرفوع ، وتعود إلىّ نفسى .

حزنت يا ابراهيم .

– يا أستاذ نحن نتحمل الاهانة إذا كانت من غريب وبعيدا عن بلادنا لأننا نعلق كرامتنا فى صالة الخروج ونستردها فى صالة الدخول ، وأبو الشوارب لم يجد ما علقه يوم سفره عند عودته .

– ألهذا لم تسافر يا ابراهيم ثانية ؟

– لا .. الموضوع أكبر .. أنا موعود بالصدمات .. مثلا سافرت الى بلد وعملت فى مطعم وقالوا أصحابه الذين لم يحضروا أبدا ويديره مصريون وجنسيات أخرى .. قالوا لى أصحاب المحل .. أنت ولد جدع وتفهم .

قلت : والله وجدت أخيرا من يقدرك يا ابراهيم .

وسهرت معهم وسهروا معى وكنت يقظا طوال الوقت ، وتفرع الكلام وطلبوا منى إغماض العين .

قلت لهم : لو أغمضت العين لنبت القرن فى رأسى وأخذنى البوليس .

قالوا : نحميك .. ولو أغمضت العين لامتلأت جيوبك وأخذت من الحب جانب .

قلت : الله غالب .. يا ناس ، وهربت .

هربت ، وطاردتنى الشرطة ، وكادوا يسحبون هويتى ، ويلغون إقامتى فهربت الى الريف .. عملت فى مزرعة دواجن ، كانت زوجة الرجل أميرة ترفع كبرياءها على ساقين من عاج ورقبة من مرمر ، ساقان مخروطتان كساقى كنبة اسطمبولى تجللها عباءة الشعر حتى الأكعاب .

تعمدت ايذائى دون خلق الله جميعا ، وحتى دون الدجاج والكلاب والحمير التى بالمزرعة ، وحملتنى ما لا أطيق ، وحصرتنى فيما بين عينيها .

وكنت أنام فى حجرة ملحقة بالمزرعة بعيدة عن بيت الرجل صاحبها .

سمعت طرقا خفيفا على الباب ، وكانت الليلة برد لا يطاق ، وكان قد مضى على وجودى بالمزرعة شهران قلت من ذا ؟!

وفتحت الباب ، كانت بعباءتها السوداء واقفة على عتبة الباب ، أنزلت العباءة عن رأسها ودخلت ، قلت سترك يا رب .

صوبت نظرها الىّ وأقفلت الباب وجلست على السرير فارتج المكان علىّ وطقطق سقف الحجرة ، فمدت قدمها وأشارت الى خفها ، فلم أفهم فاضطجعت على السرير ومدت ساقها وكانت عارية من الخف حتى أعلى الركبة عند التقاء أطراف العباءة .. وكانت مفاصلى ترتعد .

خلعت لها خفها من قدمها البعيدة عن مواجهتى فأراحتها على السرير وتركت أطراف العباءة ومدت الساق الأخرى فرأيتها كلها عارية ، وعندما مددت يدى لأخلع لها خفها أخذت تسحبها ناحيتها وترسلها ناحية اليمين مرة وناحية اليسار مرة حتى انكشفت عن آخرها وعندما أعطتها لى أمسكتها فأمسكتنى من رقبتى واعتدلت جالسة ثم أخذت رأسى معها ونامت وسحبتنى فوقها كتل من اللحم الجامد وقباب من العاج تنفث فى جسدى لهيبا ، وأمسكت يدى ومررتها على جسدها وأوقفتها فى أماكن معينة وأنا يجرى عرقى بين الخوف والخوف والرغبة ومدت يدها الى ملابسى فحاولت المقاومة فقالت بكبرياء شديد إخلع ملابسك .. تعال .. وكانت تمسك بيدى وأنا فى وسط لجة من الذهول ، فاذا بها تمص أصابعى فسحبت يدى متعللا بأننى لن أستطيع خلع ملابسى وهى ممسكة بيدى فتركتها وقالت بسرعة ووقفت وألقت عباءتها بعيدا وفى ثوان كنت خارج الحجرة لا أعرف الى أين .. يذهب العالم

الى الجحيم ، أنجو بعمرى وعدت بعد حوالى ثلاث ساعات مترقبا حذرا ، كان باب الحجرة مفتوحا تلاعبه الرياح الباردة التى قصمت ظهرى وجعلتنى أبول على نفسى ، ملابسى وكل حاجياتى خاصمت أجزاءها أجزائها وصارت قطعا .

حزمت حقيبتى ، وخرجت فى وجه الصباح وظهر الليل غريبا مطاردا بلا جريرة من بلد الى بلد حتى وصلت الى مدينة على حدود دولة أخرى وسافرت منها بالأتوبيس الى هناك .. حمدت الله أن نجوت بعمرى وكان معى الجواز . بحثت عن عمل ... فوجدته فى مصنع للغسالات ، وقام صاحب العمل بعمل الاقامة والهوية وأعطاهم لى مع الجواز وجعلنى بعد فترة من العمل كابنه ثم قال لى ليس معقولا أن تنام فى المصنع ، ابحث عن مكان للسكن وسأدفع تكاليفه ، وكان يحكى لى كل أسراره ووجدت سكنا مع واحد تعرفت عليه من ـ كفر السواقى تبع أبو كبير - وكان ولدا شهما قال لى هناك عقد بمائة دينار للسفر ، وقيمته ثلاثة آلاف ريال جهز نفسك ، أعطيته النقود وانتظرت الفرج ، وكان صاحب العمل قد أشار إلى بيته وقال هذا بيتى .. وكان يسكن فى ضاحية بعيدة عن سكنى وكنت حريصا ألا يعرف مكان اقامتى .

فى أحد الأيام أعطانى بعض الحاجيات وقال : اعطى هذه الأغراض للبيت .. السيارة فى انتظارك .

تركت الأغراض بالسيارة وأجرة نصف شهر ومكافأة آخر المدة وذهبت الى السكن وقفلت الباب بالمفتاح وحزمت حقيبتى وانتظرت صاحبى .

فى المساء جاء وسألته عن العقد ..

قال لى : بعد ثلاثة أيام ..

قضيتها فى ظلام الحجرة .. وحكيت لصاحبى الحال وفهم .. ولم يخبر أحدا بمكانى .

سافرت الى بلاد العقد ، وكان عملى فى منطقة صحراوية فى مخبز آلى مشرفا فنيا .. وبعد عدة أشهر قالوا سنذهب الى السهل .. وأنا لا أعرف السهل من الصعب .

أخذوا خيمة معهم ووصلنا الى مكان منخفض واشترينا خروفا وجهزوه للشى وكان معنا كل ما نحتاجه .. قلت لهم : سأخرج لأسير قليلا قالوا لا تذهب الى هناك ..

وأشاروا الى بعض خيام حمراء بعيدة ..

سرت حتى قاربت الخيام من بعيد كانت أم كلثوم تصدح وبعض الرجال والشباب الصغار السن يشربون القهوة والخراف تشوى .

سرت بعيدا عنهم ودرت خلف الجبل ، وصعقت كان رجل يركب شابا ويفعل ، صعقت وأخذت أجرى حتى وصلت الى خيمتنا وأنا أنتفض من الحمى ودخلت فجاء من كان على مقربة منى وكان البعض مشغولا بتجهيز الطعام .

نمت على الفرش وحكيت لهم ما رأيت وأنا أرتجف فصمتوا جميعا .

وقال أحدهم : جئنا للعمل هنا فقط .. لن نغير عاداتهم .. لن يصدقك أحد وهم يعرفون أنك الصادق .. لو علم أحد سيرحلونك أو يسجنوك .. قلنا لك لا تذهب الى هناك .

بعد عودتنا تركت العمل وعدت .. قلت موعود بالألم ومنطقة عدم التصديق .

– أنت لا تثق فى نفسك .. هربت من الهزيمة .

– عدت لأجدها فى انتظارى .. ولم أجد غيرها وإن تبدت وتبدلت فى صور كثيرة .

– بالمناسبة قلت لأبى الشوارب والأرض ؟!

تنهد وقال :

– لما عاد المسافرون الينا ارتجت الأرض بمن فيها ومن عليها فهؤلاء الذين رأوا خلق الله فى مكان آخر ودنيا أخرى .. عادوا معهم الفلوس التى غير فلوسنا والواحد منها يشترى الكثير ويساوى الكثير من فلوسنا الغلبانة .

اشتروا كل شىء فقطع نخل كثير وأهمل الباقى وأصبحت كبائع الطرابيش فات زمانه فأخذت أدفع فى فم الأيام بقطع من الأرض قطعة قطعة وهذه الأرض هى أرض الخارجة ومعظمها مبانى وبنينا فيها بيوتا .. أخذت أطعم الأيام أرضى حتى لم تعد يداى تمسك إلاّ فى حدٍّ جارى فالتفت الى الوراء فاذا غرباء قد احتلوا الأرض فبحثت عن عمل آخر ولم أجد ، ودخلت دارى ووجدت (مشنة العيش) فارغة فبحثت عن أرض لتحملنى عليها فسافرت .. وحجارة عينى تتفجر من الغيظ مضى زمن النصائح يا أستاذ وشمع القلب يذوى ويكاد ينطفىء ، وابيضّ شعر الرأس والحمد لله أنه ابيضّ من الأمام فهو دليل الكرم وليس من القفا علامة اللؤم وسوء الطالع .

★★★

قلت يا ابراهيم أن ما فى الكتب لا يرقى الى ما فى الواقع وما علينا إلاّ اعادة اكتشاف هذا الواقع المجهول .

★★★

موجة عاتية من الاقتلاع تجتاح كل شيء ، ورياح طوبة أشد رطوبة من رياح أمشير .

سرت يا ابراهيم فى طريقى ناحية ترعة النصرانية باتجاه حوض نجيح مرورا بأرضنا فيما سبق .

كان هناك بين أعواد الذرة ظهرا محنيا ، نصف دائرة من الدمور الأصفر كان يعزق الخطوط ، ثم يعتدل ليلقِّمْ الكيماوى ، قلت لعلها رؤيا المصرى القديم ظللت أراقبه ثم سرت الى رأس الأرض فاعتدل ، أعطيته السلام فأخذه بدهشة .

– من سنين لم نرك يا أستاذ .. زمان ..

كانت كفاه قد تشققتا واخشوشنتا كأنما هما جزء من كبد الأرض ، عرقه جميل وتعبه يسيل ، أخمص البطن ، مشدود العضلات ، لا ارتخاء ولا اعوجاج .

– أهلا يا محمد يا أبو باز .. لماذا لم تسافر كما سافر الناس ؟

قال وهو يلقِّم الكيماوى :

– أتركها لمن ؟ فيها البركة ، دارى مفتوحة منها وبها والحمد لله رضا ، على فى كلية الطب .. هل تذكره يا أستاذ – كان يعمل معنا أيام المقاومة الكيماوية ، كان صغيرا ، وأنا أحفظ لك الجميل ، وكنت تكتبه نفرا كاملا بأجرة رجل !! أيامها لا أعرف هل كنت تعرف أن أبى لم يكن قد أعطانى هذه الأرض وطردنى من الدار .. ولا أنسى يوم أخذتنى الى المستشفى ونحن نرش المبيد فى مارس البقرى وجاءتنى حالة تسمم .. أنت أصيل وابن أصل والحمد لله فاطمة تزوجت أظن أنك لم ترها يا أستاذ – كان قد وصل الى نهاية الخط ووضع صفيحة الكيماوى وأمسك بالفأس وبدأ فى عزق الخط المجاور – عندها محمد وعلى أولادها .

- ألم يسافر زوجها ؟

- يسافر ؟ زوجها موظف محترم ، كاتب فى الوحدة الصحية ، يعطى الحقن فى حجرة من منزله بها ماكينة الخياطة التى يعمل عليها - أنت تعرفه - كان يتعلم الخياطة عند محمد أبو الدهب صاحب أبيك - الله يرحمه ويرحم الجميع - الذى يسافر يا أستاذ يضيع ، تنعم يده على الفأس ، وتطرده أرضه ، ويبقى قلبه معلقا بالطائرة وشيش البوابير فى رأسه ولا يهمه حتى تأخذه اليها .. وكان قد اعتدل عند نهاية الخط المجاور بعد عزقه فعرفت أنه يأخذ عزيق خط ذهابا ويعود بخط عزيق ثم يضع الفأس ويستلم الكيماوى ليلقِّم الخطين ثم يضع الكيماوى ويستلم الفأس كأنما يهمه ألا تكون رأس الحقل خالية أو عارية فلابد من شىء ليحرسها .

اعتدل : كم الساعة يا أستاذ ؟

سار خارجا من رأس الحقل الى المصلى .

- أظنه وَجَبْ .

نزل الى الماء وتوضأ ووقف على جانب المصلى ، وأذَّن لصلاة الظهر ، كأنما يؤذن فى الحرم وصلى ركعتين ، ولم يتكلم معى فى شىء .

فتوضأت وصليت ركعتين ، ونوى إماما وأنا مأموم ، وصلينا الظهر ، ثم صلى ركعتى السنة البعدية ، وسبح وحمد وكبر واستغفر ومد يده لى : حرما .

ثم قام الى الأرض وسار ثم مال وحمل صرة فى يده وأتى بها ، فتحها بجوار المصلى وقال لى وهو يشير الى الطعام : باسم الله .

كان بها عيش ومخلل وسمك مقلى .

جلست معه وأكلت وقلت فى نفسى سمك مقلى صار مستوى المعيشة مرتفعا إذن .

قال : طنبوشة عبد الحى .

فى ساعة العصر أمس ، قلت أعود الى الدار قبل المغرب فهذا يوم رجوع على من الكلية لأنه يبيت عند أصحابه فى بعض الأيام .

وجدت فى الترعة الصغيرة ضَرْبْ سمك وقَلْبْ والماء عكر أمام الطنبوشة .. ذهبت الى داره فقالوا فى الجامع .. وعند باب الجامع وجدته مع عطية البرش كلّمته فى الموضوع على جانب من الطريق ، وضع يده على كتفى وقال توكل على الله معك الأولاد .. جهزنا الجرادل والأجولة والطنبور والملاس والحبل وقش الأرز وذهبنا ، أقمنا سدا أمام فتحة الطنبوشة بثلاث قصبات وسدا أمام السد بعد أربع قصبات ووضعت الطنبور فيه ونزحت ماءه الى باقى الترعة وأخرج أولاد عبد الحى ما به من سمك وقراميط ثم صفيت السد الذى أمام الطنبوشة فى مكان النزح واصطدنا السمك الذى أمام الطنبوشة ثم زدت الملاس قشا وربطه بالحبال ، وربطه فى وسطى ثم دخلت ماسورة الطنبوشة من الجهة الأخرى من بطن الطنبوشة بعد أن دفعت ما بها من طين وأسماك وماء أمامى ثم زحفت داخل الماسورة وأنا أدفع كل ما أمامى والملاس لا يفلت شيئا خلفى إلا بعض الماء ، وكنت أحس بالسمك والقراميط تضرب فى جسمى وتفر من تحط بطنى ، حتى خرجت من الجهة الأخرى أمام السد وسحبت الملاس فتدفق خير كثير من زور الماسورة . أخذت شيكارتين ومقطف وأخذوا ثلاث شيكارات ومقطف .. أكلت عزبة (البدارنة) ليلة أمس سمكا كلها ، وأخذ على معه سمك لزملائه بالكلية ، أنت هنا اليوم لك نصيب فى السمك والطشوت بها الخير كثير ، سيفرح على بك كثيرا .

***

عدت يا ابراهيم والهواء غير الهواء ، حتى بيوت القرية وطرقاتها ، أصبحت غيرها ، وكلابها صارت أجمل ، وعندما دخلت بيتنا القديم كنت أحسُّ أنه يتنفس كأنما لغة ضاعت ووجدتها .

خرجت فى ظلام الليل أسعى فى درو ب قريتى التى تصر أن تظل أعمدة النور بها مرشوقة كالمارد ولكن بلا لمبات ، كأنما تخاف على أسرارها من الكشف .

كنت قد وصلت الى الطريق الأسفلت ، كان ظلام الليل أجمل وأرق فبحت قال القلب المتعب بح لعلك واجد اجابة .

كان صوت نقيق الضفدع خافتا فى القناة فبعدت عنه وقلت : كفانى يا قلب أريد لغة أخرى ، أعطيت وجهى للحقول ونسيم الليل ، كانت أيدى الحقول تأخذنى اليها وترابها يبتسم تحت خطوى وأذرعها تداعبنى وتسلم علىّ يد بيد ، وتعتب علىّ .

قال : نهر النيل لا عتاب يكفى أنه عاد .

بكيت بكل عمرى وقلت بصوت مكلوم مزقتنى الكلاب يا ناس .

فتردد نقر درابكها خافتا أول الأمر ثم عاليا - عاليا .. ثم أتى صوتها ليسأل عن هذا القبر الذى داهمته البقر وهدته ؟ فتأتى اجابتها بالنواح .. انه قبر الغريب الذى هجر أرضه ، ودفن غريبا لا أهل له . وعندما فرغت من بكائى كان نهر النيل قد فاض ، فوضع يده على رأسى وقال : كفاك .. استدارت ساعة الوقت ..

كان قد اختفى مثلما بدا .. وعدت صامتا .

***

كانت ضفادع أرستوفان مفتوحة الفم على مكتبى يلازمها فجر الضمير ، أقفلت كل هذا ، وأخرجت الخطط التوفيقية لأبحث عنها وهى صغيرة .

★★★

قلت فى نفسى : فيما كان عشقك للسكة الحديد صغيرا ، وخروجك كل يوم لتجلس بجوار شريط السكة الحديد - لا يشغلك إلا هؤلاء المسافرون الى إين ؟ ومن أين ؟

وكنت تسأل كيف يرجع هذا القطار إذا وصل الى نهاية الخط فى مدينة أين ، مدينة المدن التى تمنع الترحال ؟

وكنت تسأل هل قدر عليهم أن يظلوا هكذا فى القطار وكنت تظن أنه قطار واحد ، حتى سافرت وعرفت أن هذه الدنيا محطات بلا ركاب ولا أحد ينتظرك ، ولا مكان لمدينة أين ، ولا شىء إلاك وحدك فى خواء تشكل من ناس وأبنية .

وعندما كبرت قليلا كنت تسأل هل يرى أبى فى منفاه البعيد تلك الشموس وهذه الأقمار والنجوم أم أن لكل مكان شموسه وأقماره ونجومه .. وعرفت أنك تعرف بقدر ما تحب أن تعرف .

وانك كلما عرفت أحسست بجهلك فاحترمت الصمت والآخرين .

وانك لابد أن تسمع أكثر مما تتكلم هكذا قضت المشيئة فم واحد وأذنان اثنتان وانك لا تخترع ولكن تكتشف وتتعلم من تجارب الآخرين .

وأن الآخر ليس جحيما .

قال العم حفنى لى : الناس حكايات لا تنتهى بالموت ، وقد يفاجئك أحد الأنذال فيحيا بموته رغم أنه كان ميتا فى حياته ويظل يطل عليك فى كل

وقت كرأس الحصان .. كن خادم الناس لتعرفهم ، وكن صامتا وودودا لتسمعهم ، وأتركهم يقولون لتعرف نفسك .

– يا أستاذ أهلكت نفسك للناس .. ماذا تبقى للأولاد والبيت ؟

– مثل ما للناس يا ابراهيم .

– آه من بنت الإيه .. سلالة مقطرة من سلالة لا تلوف ولو أكلت لحم الكتوف آه منى ومن اخلاصى .. أعطيتها كل شىء ، ونسيت ما كان ، وأخذت كل شىء من الناس وأعطيته لها ، وأوقفت نفسى كوقف بيت المال لها ولشهواتها وجعلتها تبصم بأصابعها العشرين فى سقف الحجرة ، ويظهرها ، وجعلتها تقبل المرتبة وتعضها وهى مزروعة زرع البصل ، وبصمت فى كل مرة فى فم الرحم حتى أصابها الاغماء .. وأحضرت لها من مكان بعيد فى الرحم فيروز وعبد الحليم ولكن الطبع غالب يا أستاذ .. ولم آخذ منها إلا النيابة والبوليس وأصبحت فى حيص بيص هل أطلقها وأتحمل مسئولية الأولاد ؟

كيف أبدأ من جديد ؟

هل أظل هكذا لا أعزب ولا متزوج ، وكل ليلة فى مكان ؟

هل أسافر وأتركها مثل البيت الوقف ؟

أم أخضع لأهلها وأصبح عيل من عيال الدار ؟

نفسى والله يا أستاذ أقطع بأسنانى حتة الحنية التى فى قلبى للأولاد .. آه ..

– سافر يا ابراهيم .. وارحم نفسك .. ثم خذها معك هى والأولاد وتعود وقد غيرت الدنيا الأحوال .

– أهرب يا أستاذ ؟

أنا أستطيع بنصف المجهود الذى أبذله فى السفر أن أعيش هنا ، لكن المشكلة فيها وفى أهلها هل أترك الدنيا من أجلها ومن أجل أهلها ؟

– المشكلة فيك أنت يا ابراهيم .

– مادامت المسألة هكذا فدعنا نتصارح .

أنت لا تسافر ، ثم تنصحنى بالسفر .

كلانا بعيد عن بيته وان اختلفت الأسباب .

والحقيقة إننا داخليا ، يحكمنا الوفاق بين الكبار ، وانشطار النواة ، بينما ينظر الينا على أننا من حملة السيوف فى عصر الذرة ، فلا تكن كبيرا وأنت من سكان العالم التاسع هذا .

ثم نحن نريد زوجة خادمة فى البيت ، عاشقة فى حجرة النوم ، تصحبك فى السهرات فتكون نجمة ، وفى باحات المثقفين أعلاهم صوتا ، وتقدمية وفى نفس الوقت متدينة ومحجبة ومن عائلة والأفضل أتراك أو باشاوات ثم نتباهى عند اللزوم بأمهاتنا الفلاحات ، نريد زوجة تملأ الكنبة وفى نفس الوقت ذات قد سمهرى .. نحن نقبل التقدمية لأصحابنا وزوجاتهم وأخواتهم وصديقاتنا ، ولكن لنسائنا وبناتنا واخوتنا لا والله ، والله سيخرج ذلك الصعيدى الملثم من حقل القصب ببندقيته الجاهزة للاطلاق ويصرعهم ونكلل بتاج الشرف والدم المهدور أوسمة .

أليس كذلك يا أستاذ ؟

– كفى يا ابراهيم .....

قد يكون ما تقوله صحيحا لكن المشكلة فى بعض الفئات التى تنادى بما تعتقد ثم فى آخر الأمر تكتشف أنهم يصطادون فى الماء العكر وأنت الضحية أو غيرك المهم ألا يكون واحدا منهم .

ان عملت معهم أكلوا أجرك تحت اسم الصداقة والمبدأ .

وان إئتمنتهم خانوك ، وألصقوا بك العار .

وان اكتفيت بصداقتهم ، تقولوا عليك ، ونصبوا لك الشراك ، ميناء وهمية مضيئة وسط لجة المحيط بالليل ، ويصرخ فيك النجم القطبى وتاريخ البحر بأن أحذر ، ولكن يطفأ فانوس الخبرة بالليل .

فتقع فى الشرك ، ملايين العصافير التى ترفرف فى حاجة الى المدى ولكنها تتخبط بصوت عال فى شباك الصيد ، وآخر ما تعيه الذاكرة دوامات من الموج وبريمة قاتلة الى القاع الذى لا يعرف مداه ، لا العقل ولا العاطفة طوق نجاة ، ولكنها الخبرة والحدس .

ربما تستطيع أن تخرج من وسط هذه الأهوال سليما .

ربما تجن ربما .

لكن حسن نواياك لن تقودك إلاّ الى جهنم صدقنى يا ابراهيم .

- صدقتك يا أستاذ ، وصدقت اننى متشائم جدا جدا ...

- تصبح على خير يا أستاذ ...

- يا ابراهيم .. البيت بيتك .

- السلام عليكم .. سأذهب الى صديق لأمر هام .

★★★

- ١١ -

لا الهواء هواء

ولا الليل ليل

ولا زوجتى زوجتى

ولا قريتنا قريتنا

لا (كانت) ولا (هيجل) ولا (ماركس) ولا (سارتر) ولا (زكى نجيب محمود) ولا أحد فى هذه الدنيا يستطيع معرفة ما أنا فيه ولا أن يحل مشكلتى . ربما ولا شريط السكة الحديد نفسه هو شريط السكة الحديد القديم من أين لى أن أعرف ؟

ألم يغير نهر النيل مجراه ؟

غير مجراه تحت أعيننا وبرغم أنوفنا ، أما كان يجرى مخترقا الواحات حتى مرسى مطروح ثم أخذ ينحت بأسنانه التى لا نراها من الضفة الشرقية ويدفع تحت الماء ما نحت ويدكه فى الضفة الغربية حثيثا حثيثا كدبيب النمل ، وتعاونت الرياح والرمال على نثر شالها الأصفر فوق تراكمات الطمى ، وليس أمامه وهو يسعى فى هذا الاتجاه إلا أن يكتسح تلك الكتل الخرسانية وينتحر فى البحر الأحمر قبل أن يصل الى شراك الخداع فيأسروه هناك .

فليسر كما يشاء وليفرش شاله الأصفر فوق الطمى وليطرد من البيوت والمساكن من بقى حيا ليعوى فى الصحراء كما الذئاب ويعيشون التيه لعلهم يتذكرون ، يعوون بلا مأوى كما أعوى الآن فى شوارع قريتى بلا مأوى .. هكذا هكذا كل الشوارع تسلمك الى كل الشوارع تلقيك الى بعض الأزقة وتتخلص منك سريعا وتعود الى دفئها وتهرب من تحت أقدامك .. وها أنا ذا أمام شريط السكة الحديد مدفوعا اليه ، إما أن أنتظر وإما أن أنتحر .

وأنا يا ناس لا أعرف ولا أعتقد ولست متأكد من أى شىء فى هذا العالم ، ولا أنا أنا ولا الناس ناس ولا أحمد أحمد ولا الهواء هواء .

ولا الليل ليل .

ولا زوجتى غيرت طبعها اللئيم .

***

- ١٢ -

آه يا ابراهيم .

أعرف .. أنه لا صديق لديك .. ولا شيء يخرجك من عندى إلاّ كرامتك أو صدمتك .. تخرج فى هذى الساعة من شهوات الناس بالليل .. والكل قد تدثر بالكل .. ولم يبق إلا أنت وأنا فى عراء الناس .

ربما زوجتك على حق .

ربما زوجتى على حق .

ربما أنت على حق .

قد أكون أنا على حق .

لكن لا أنت ولا أنا ولا أحد فى هذه الدنيا يطيِّبُ جراحات القلب ، والأولاد بيننا جسر الذكرى والمناسبات وتحت الجسر هوة التفاصيل وحق الرجل على المرأة وحق المرأة على الرجل ، وعائشة مفتقدة ، والدنيا ضيقة والهواء سميك .. تتقاطع الطرق وتتشعب من بينها طريق واحد أنت تلزم نفسك به فتتحول الى عبد له .. روتينى ، آلى ، ولا تصبر ، فتغير الطريق ، ولكن تعود مرة أخرى من حيث بدأت الى نفس الطريق السابق ، أو يؤدى بك الطريق الى نفس الطريق السابق كأنما شراك قد نصبت لك ، وقوة تدفعك اليه مؤامرة غاية فى التشابك والتعقيد قد نصبت لك .

كنت تضيق وأنت صغير بخيوط الصوف عندما تتعقد وتتشابك بين يديك وبالصبر والمجالدة وجدت حلا لكل عقدة ، واليوم أحس أن هذه العقد فى رأسى وحلقى ، مثلا عندما ينتقد أحد الناس طريقك ينبرى من داخلك شخص آخر ويدافع عن هذا الطريق ألذى استعبدك ، ويخرج الصوت من حنجرتك وربما يصبح ضدك ، هل أنت أنت ؟ أم أنك مزدوج ؟ أم أنك لا تعرف إلا هذا الطريق ؟ رغم أنه لا يجيب على أسئلتك ؟ أم أنها اللافتات التى علقت فصنعت وقسمت وأضغمت ملامح عقلك فى هذا الطريق وحتى عندما يضرب فى رأسك كلام أبو الشوارب ومحمد أبو باز وحكايات زوجتك وعائشة الخياطة وأم عصام وتصبح محاصرا ما بين بيت النساج والبيت الكبير وتعاليم العم حفنى ودرابك عائشة تجن أو تجن ويتبعك ابراهيم ويتعبك وتختلط الفلسفة فى رأسه بالناس وبزوجته وبى فيتكلم مثلى كأنى أنا ويحمل بعض مشاكلى للناس جراحاتها وآلامها ،

ولم يعد فى القلب مكان يا ابراهيم .. موعود بالقلق .

وظائف كثيرة عملت بها ما أن أستقر فى احداها حتى أتركها بلا سبب وأعمل فى أخرى بلا سبب .

أسافر الى القاهرة كأنما أرزاق العباد تنتظر التوزيع ، فلا أجد ما أفعله ولا أجد من ينتظرنى ، فأحس بالوحشة وكأنها حانة تجمع فيها الغرباء المصدوعون بالوجع ، وتعود الى قريتك فتحس بالسؤال الكبير : لماذا عدت ماذا تريد ما هى الأعمال الموكولة اليك ؟.

فأسكن بين القاهرة والقرية .. تلك القاهرة التى تقهر الناس بخبثها ومنظرها ولكنك قهرتها وأظهرتها نمرا من ورق .

وتحس بأنك مكلف بتبليغ رسائل العم حفنى وعائشة الى القاهرة المجنونة لعلها تعود الى عقلها . ولكن هل سيسمعنى أحد ، اذا كان ابراهيم

قد خرج فى تلك الليلة والنهار يدخل على مهل والناس وقعوا تحت سلطان النوم ودفء الفراش .

وأنت تشرب كل الصباح

فلا أنت أعزب فتنام ولا متزوج فتنام

علاقتك بالنساء قهرا منهن عليك

لا تأخذ من أحببت

ولا تكره من أخذتك

وأنت للناس والناس لأنفسهم وتحبهم

لا أنت فى القرية ولا أنت فى المدينة

وبدأت فى كتابة رسائلك ولم تكملها

فماذا أنت فاعل يا أحمد ؟

★★★

- ١٣ -

ليست الليلة عاشوراء
وليست مفترجة يا ناس
من حقى أن أفعل ما أشاء .

فى الشارع مازلت أمام شريط السكة الحديد أنتظر أو أنتحر ؟! يدخل الصباح فوق شريط السكة الحديد أراه ، أتغافل عنه فى ساعة دخوله الحذر، فكلنا لنا ساعات ضعف .

يضرب تيجان النخيل فتدمع بالندى .

ويضرب هامات الكازورينا فتدمع بالندى .

ويحنو على نبات الحقل فيدمع بالندى .

ويضرب الكافور فى قلبه فينساب خيط الدم سيالا فى الصباح على صدر الكافور بنى اللون .

أتركه يدخل القرية لعل فيه شيئا جديدا .

ولماذا لا أتركه يدخل القرية ؟ ربما يكون على حق .

ربما زوجتى على حق .

ربما زوجتى وأولادى فى البيت .

ربما لم أذهب الى البيت بعد خروجى من النيابة .

أو ربما لم أدق الباب جيدا هل كان للبيت باب .. أو .. أو ... ربما لم

أذهب الى النيابة أصلا .

أنا أحضرت اللحم والأكارع ، ولماذا أحضرت اللحم والأكارع ؟

– لتطبخها زوجتى .

– زوجتك ؟ زوجتك غاضبة فى بيت أبيها .

– صالحتها .. أنت تنسى ولبست القميص اللبنى .

– أنت تنسى منذ عام وزوجتك فى بيت أبيها .

– ربما تكون على حق .

– ربما أكون على حق .

– ربما شريط السكة الحديد هو شريط السكة الحديد ، انه هو .. أليس هذا هو المقهى الذى يفتح أبوابه لأبناء الليل وأبناء النهار .

أليس هذا هو النهار الذى يفضح أبناء الليل .

اذن لماذا أنا هنا ؟

– لماذا أنت هنا يا ابراهيم ؟

– أجب يا ابراهيم .. والله أنا أريد أن تقول لماذا أنت هنا .. والى أين أنت ذاهب يا شيخ .. وماذا ستفعل يا ابراهيم ..؟

.. أنت لا تريد مشاكل .. لكن المشاكل هى التى تلاحقك .. مظلوم والدنيا للظالم .. هل ستصبح ظالما يا ابراهيم .. ماذا ستفعل يا ابراهيم ؟ والليلة ليست عاشوراء ؟ وليست مفترجة وحتى لو كانت الليلة عاشوراء أو غير عاشوراء .

هل صدقت أن الليلة عاشوراء يا ابراهيم ؟

رقم الايداع : ٨٠٧٣ / ١٩٩٢
I. S. B. N.
977-07-206-4